فـدائـيـــون

"ثورة الشعب الفلسطينى من خلال ثقافته وأناشيده الوطنية"

للدراماتورج الإيطالى الحائز على جائزة نوبل

داريو فو


il collettivo teatrale
LA COMUNE DI MILANO
FEDAYN
DARIO FO
con
FRANCA RAME
la rivoluzione
del popolo palestinese
attraverso la sua cultura
e le sue canzoni
lo spettacolo riservato ai soci
per informazioni telefonare al n.

داريو فو

ولد عام ١٩٢٦ فى إيطاليا ، من أسرة متواضعة ومكافحة .

عاش فى ظل النظام الفاشى الذى كان يحكم إيطاليا بالحديد والنار . كاتب ومخرج وممثل ومرتجل بارع .

جعل من المنصة منبرا للنضال ، من أجل نصرة المقهورين والمظلومين فى الداخل ، والدفاع عن الشعوب المغلوبة . هاجمت أعماله عصابات المافيا وتجار المخدرات والاستبداد السياسى . ونددت بالاستعمار فى شيلى وفيتنام وفلسطين وباقى دول العالم .

مسرحياته الأولى من نوع مسرح الكاباريه ، حيث ربط الارتجال بالكوميديا ديللارت القديمة .

كتب أكثر من خمسين مسرحية ، بدأها بمسرح المنوعات مع زوجته ورفيقة كفاحه " فرانكارامى " التى تزوجها عام ١٩٥٤ .

– قدم فى إذاعة إيطاليا مونولوجات فكاهية فى الخط النقدى اللاذع نفسه .

– أولى مسرحياته كتبها عام ١٩٥٣ ، وعرضها على مسرح بيكولوتياترو بميلانو بعنوان : "الإصبع فى العين "ثم" أصحاء مجانين".

أثار نقده العنيف سخط السلطات السياسية، والدينية، فمنعت العرض.

قدم فى التلفزيون الإيطالى مسلسلا من تأليفه وإخراجه وبطولة زوجته . تدخلت الرقابة بالحذف فتوقف المسلسل .

بعد أحداث مايو الكبرى فى فرنسا عام ١٩٦٨ ، ونجاح حركة الطلاب والعمال فى إسقاط ديجول، قرر داريو فو الانخراط فى المعركة . مما عرَّضه للسجن وعرض زوجته للاعتقال .

جاب إيطاليا ، وقدم عروضه أمام آلاف العمال والطلبة ، فى مراكز تجمعاتهم ، وفى الإستادات الرياضية . وكان يعقب كل عرض ندوة تناقش القضية المطروحة ، مما أثار السلطات والحزب الشيوعى الذى كان يؤيده ، فسحب الحزب تأييده وجماهيره ، مما اضطر داريو فو إلى تكوين فرقة خاصة باسم " البلدية " .

عام ١٩٧٢ قدم عرضا عن كفاح الشعب الفلسطينى ، استعان فيه ببعض الفدائيين الفلسطنين واللبنانيين .

آخر عناوين مسرحياته :

الحكايات المخجلة ، يوميات حواء ، الفجلة والفولة ، أرليكينو ، القناص ، البابا والساحرة .

شدد التنكيل على الاستعمار القديم والاستعمار الحديث الذى تمثله أمريكا ، مما جعل الأمريكيين يمنعونه من دخول أمريكا لتقديم عروضه أكثر من مرة ، ولم يُسمح له بالدخول إلا لفترة أيام قليلة ليحضر عرضا له قام مخرج أمريكى بتقديمه .

* * *

الجـــــزء الأول

ممـــثـــلـــة : فـى العام الماضى . وفى العرض الذى قدمناه عن كفاح الشـعب فى إيطاليا وفى فلسطين وفى الأردن . روينا نكتة طريفة جدا عن الأميرال " مينسون " قائد البحرية الأمريكية . وهو واحد من قواد حلف شمال الأطلنطى (الناتو) . نكتة فى غاية السخرية . بالذات لأنها صادرة عن أميرال فى البحرية . تقول النكتة إنه خلال حفل كوكتيل . سألت سيدة الأميرال قائلة : ما أكبر حاملة طائرات أمريكية؟ فرد الأميرال قائلا . وكان سكرانَ ولذلك كان جوابه طريفا جدا . قال الأميرال : " أكبر حاملة طائرات أمريكية اسمها إيطاليا." فاستطردت السيدة وهى مندهشة : " إيطاليا ؟ " هل عندنا حاملة طائرات اسمها إيطاليا ؟ وأين ترسو ؟ " فأجاب الأميرال : " فى البحر المتوسط . وهى مرابطة هناك تحرس الشرق الأوسط . وأول عربى يحاول أن يتحرك تقوم بتدميره على الفور .

فالواقع إنه من شبه جزيرتنا الإيطالية لا تتم مراقبة السوق والسياسة الخاصتين بالبحر المتوسط بأسره فقط. ولكن أيضا أى تحرك ذى طابع عسكرى . ففى كعب الحذاء الذى يمثله جنوب إيطاليا يوجد من حاملات الطائرات الخاصة بالحراسة والمراقبة أكثر من مثيلاتها الموجودة فى جميع بلدان حلف شمال الأطلنطى .

وماذا عن مصافى البترول الخاصة بشركات شيل وإيسُّو والشركات الأخرى المنتشرة فى شبه الجزيرة الإيطالية ؟

توجد فى إيطاليا مصافى بترول أمريكية أكثر من الموجود منها فى أوربا كلها . وهذا يفسر السبب الذى من أجله اختيرت مدينة نابولى الإيطالية لتكون المقر العسكرى لعمليات حلف الشمال الأطلنطى فى البحر المتوسط كله .

ولكن الناتو أو حلف شمال الأطلنطى وحاملات الطائرات التابعة له لا تدافع فقط عن مصالح الرأسماليين الأمريكيين والإنجليز . كلا . بل تدافع أيضا عن مصالح أصحاب المصانع والرأسماليين فى إيطاليا بلدنا . وذلك على حساب شعبنا المعدم الفقير . نعم ؛ لأن الشعب الإيطالى ما يزال فقيرا جدا بالنسبة لبلدان أوربا . فهو شعب من شعوب الدول النامية . المضطر إلى الخروج والهجرة إلى البلدان الأخرى . ولكن الرأسماليين عندنا أغنياء جدا . من أغنى أغنياء العالم .

عندنا أشخاص يعدون من أغنى أغنياء العالم. والمضحك المبكى فى الوقت ذاته أن مواطنيهم - إخوانهم فى الوطن - من أفقر فقراء العالم. ويجب علينا أن نشعر بالفخر لذلك. فبفضلهم وبما يحققون من دخول وعائدات تعتبر إيطاليا سابع دولة رأسمالية فى العالم . فالشكر الجزيل لهم !

إذن كل ما يجرى فى الشرق الأوسط يعود إلينا نحن . ونحن أيضا نستورد البترول . فنحن والرأسماليون عندنا نستغل الأيدى العاملة العربية . ولنا هناك أيضا آبارنا . إذن . فنضـــال الشعـــب الفلسطينى يهمنا مـــن قـــريب . بل ويهمنا كثيرا .

أيام الحروب الصليبية . وهو الأمر الذى يعترف به رجال الدين (المتطورون منهم بطبيعة الحال) كانت الذريعة وراء هـذه الحـروب المقدسة هى تحرير القبر المقدس Santo Lepolcro لكن كان الهدف الحقيقى هو الاستيلاء على طريق التجارة إلى الهند . تجارة الحرير والتوابل .

لقد كان تجار البندقية وجنوه وأمالفى وبيزا هم الذين قاموا بتمويل الحروب الصليبية . لأنها كانت بالنسبة لهم رأس كوبرى إلى سوريا ولبنان . وفلسطين .

بالضبط كما هى الحال الآن . فأغنياء البترول وأصحاب المصالح فى الشرق الأوسط يمولون دولة إسرائيل . لأنها بالنسبة لهم تقوم بدور الحارس والمراقب لأى تحرك عربى يهدد مصالحهم المقدسة .

وبصرف النظر عن اهتماماتنا العالمية . فقد فكرنا أنه من الواجب علينا أيضا أن نستأنف مناقشتنا للنضال العربى. لنضال الشعوب العربية ، وذلك لسبب آخر. ربما يكون أكثر أهمية ؛ ذلك لأن رفاقنا العرب – هذه الأيام – يمرون بمرحلة حرجة للغاية فى صراعهم ضد الاستعمار. فمن ناحية. المجزرة التى تعرض لها الفلسطينيون على أيدى مرتزقة. هذه الجريمة فتت فى عضد المقاومة الفلسطينية التى تحاول الآن أن تعيد تنظيم صفوفها ولكن بمشقة بالغة . ومن ناحية أخرى . محاولة القوى الرأسمالية المستغلة انتهاز هذه الفرصة للقضاء على المقاومة الفلسطينية . من أجل ذلك. أخذنا على عاتقنا إقامة هذا العرض المسرحى ، ونحن مدركون أنه لن يحل المشكلة بطبيعة الحال . لكنه سيخدم القضية بشكل أو بآخر . وسيكون بمثابة حجر فى بناء كبير سيخدم القضية ، بمعنى أنه سيشعر العرب بأنهم ليسوا وحدهم. ليسوا معزولين كما تحاول القوى الاستعمارية ترسيخ مثل هذا الشعور عندهم .

وفيما يختص بالعرض المزمع تنظيمه ، لم نتمكن – نحن الممثلين فى الفرقة – من الوقوف فوق منصة المسرح لنروى تاريخ كفاح الشعب الفلسطينى . فقد رأينا أن أفضل طريقة لتنفيذ هذا العرض هو أن نجعل الفلسطينيين يقومون بهذا العمل بأنفسهم . ويا حبذا لو تم ذلك عن

طريق أولئك الذين يقومون هناك بالثورة وهم الفلاحون والعمال الفلسطينيون .

ولذلك أرسلتنى فرقة المحافظة إلى بيروت لمقابلة الرفاق فى الجبهة الشعبية الديمقراطية . ونحن على اتصال بهم منذ فترة . وإقناعهم بأن يرسلوا إلينا عدداً منهم . ويفضل أن يكونوا من المغنين الشعبيين والممثلين المحترفين – إذا أمكن – المنخرطين فى النضال الوطنى. ولكن مجرد الحديث عن وجود ممثلين مسرحيين فى القواعد العسكرية وفى معسكرات اللاجئين . كان ضربا من الوهم أو المحال ؟ ففى تلك الأماكن لا توجد فرصة لممارسة مثل هذه الأنشطة . عندئذ بدأت أستعد للعودة بخفى حنين – كما يقول العرب – ولكن حدث ذات ليلة وقبل أن أرحل، أن دعيت إلى إحدى قواعد الفدائيين .

(فى منتصف المنصة وفى العمق تظهر مجموعة من الفدائيين جالسين فوق الأرض فى حلقة ، يعزفون على آلاتهم الموسيقية ويغنون أغنية " الناى المتجول" .)

داخل خيمة حوالى عشرة من الفدائيين ينشدون فى كورس بشكل جماعى. ينشدون بصوت خفيض . أشبه بالشكوى أو الأنين . تبدو لى أصواتهم نشاذاً وليست كمثل الأغانى الجميلة القوية المنتشرة فى الأسواق منذ فترة . بل ولا حتى مثل الإيقاع القوى الحماسى الخاص

بنشيد منظمة فتح الشعبية . بأغنية "بلادى بلادى " التى استمعنا إليها جميعا فى ميدان الدّومو فى ميلانو فى خلال المظاهرات التى قامت بها الحركة الطلابية .

كانت هذه الأغانى – أغانى قرويين فلسطينيين – أغانىَ كئيبة مليئة بالغضب والسخرية . وقد طلبت أن تترجم الأغنية التى يقومون بغنائها فكانت تقول :

ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله
وخسر اللوز الأخضر من كرم أبيه ؟
ماذا ينتفع الإنسان
لو شرب القهوة فى باريس
وخسرها فى منزل أمه ؟
ماذا ينتفع الإنسان لو جاب العالم كله
وخسر الأزهار على تل بلاده ؟
لا يربح غير الصمت الميت فى جوف
البشر الأحياء .

وقد استولت علىَّ الحماسة . فسألت عن طريق المترجم قائدهم السياسى : لماذا لا تجعلونهم يحضرون إلى إيطاليا لكى يغنوا هذه الأغانى .. فأجاب الرفيق قائلا : "هل أنت تمزحين ؟إنهم من أفضل المناضلين فى الجبهة كما أنهم هم الذين يقومون بتعليم أطفالنا . لا نستطيع أن نستغنى عنهم هنا ؛ فلديهم خبرة طويلة ، بالذات فى

مجال النضال المسلح . إنهم يحملون على ظهورهم خبرة مئات العمليات الحربية . ثم ماذا يمكن أن يصنعوا فوق منصة المسرح . إنهم حتى لا يستطيعون التحرك . هل ترين هذا الواقف هناك؟ لقد كان يرعى الغنم حتى الأمس القريب ؟ هذا الذى فقد إحدى عينيه فى إحدى المعارك هو قروى ؟ لم يذهب قط إلى المدينة ؟ أما هذا الذى يستطيع أن يتحرك . ففى ساقيه من الثقوب التى خلفتها القذائف النارية أكثر مما فى قطعة الجبن السويسرى . "حينئذ شعرت بتفاهتى . وتذكرت قصة الملكة الفرنسية التى أرادت أن تحل مشكلة نقص الخبز بتوزيع البسكويت على الشعب الجائع .

إن الحديث عن تنظيم عرض لأناس يقومون بالثورة موضوع ليس له محل من الإعراب. لكنهم بدءوا يناقشون الثقافة – ثقافتهم – ثقافتهم القديمة – حينما كان العرب موجودين فى الأندلس . أغانٍ من عصر الحروب الصليبية من هذا النوع :

" وصل الفرنجة يحملون الصليب
خلف كل جندى منهم راهب من روما
وخلف كل راهب تاجر من البندقية . "

وبين حين وآخر كنا نسمع من يغنى أغنية من أغنيات العمل والكفاح .

أغنية الفلاح

يا أيها الليل
كم أنت قصير بالنسبة للفلاح
هأنذا مبكرًا على الطريق الذى لم تشرق عليه الشمس
بعد
زوجتى استيقظت من قبلى
لكى تصنع الخبز بدون الملح
ليس فى جيبى درهم واحد
والريح تهب تلسع بشرتى وجفونى
وفمى ملىء بالتراب
أنا إنسان حر وحيد فى قدمىَّ
فى قدمىَّ العاريتين
ليتنى لم أتزوج مطلقا
على الأقل ما كنت أنجبت أطفالا
لقد قدمت لسيدى مزيدا من العبيد .
ولكن أخبارًا من المشرق أعادت إلىَّ الأمل .
يقولون إن رجالا " حمرًا " يحملون سيوفا قاطعة .
تدفقوا كمياه النهر من الجبال
يغنون أغنية الاشتراكية
دمَّروا قصور الظلم
وأبراج الإقطاعيين

هؤلاء الإخوة أرسلوا إلينا يقولون .
لنا – نحن العرب – :
كونوا أنهاراً بسيوف قاطعة
كونوا أنتم أيضا رياحاً عاصفة
دمِّروا الأبراج والجدران وأسوار السادة
تحرروا

وفى النهاية احتدمت المناقشة . وأكد أكثر من واحد أن من الضرورى تنظيم هذا العرض . وأنه لا يقل أهمية عن الكفاح المسلح . " لكننا لا نجيد فن الإلقاء والتمثيل . بل ولا حتى نحن قادرون على الإنشاد " . " حينما بدأنا الكفاح . لم نكن حتى نجيد إطلاق النار . ولم نكن نعرف كيف نجعل الناس يستمعون إلينا . ". " يجب أن نتعلم كيف نروى تاريخنا . كفاحنا ؟ كما فعل الشعب دائما " . " إذا كنا نريد أن نعرِّف عمالنا وفلاحينا وكل عمال أوربا وطلابها وفلاحيها . لماذا لجأنا إلى السلاح . فلعلنا نستطيع أن نقوم بذلك عن طريق أغنية . أفضل مما لو كتبنا مئات المقالات الدعائية " . إن الفلاحين والعمال يتكلمون لغة واحدة ، لغة المقهورين المستغلين حقا . إن كلمات أغنية فلاح من صقلية أو من البندقية تشبه إلى حد بعيد كلمات رفاقهم العرب . يكفى أن نستمع إلى هذه الأغنية :

المستحيل

كأننا عشرون مستحيل
فى اللد . والرملة . والجليل
هنا .. على صدوركم . باقون كالجدار
وفى حلوقكم .
كقطعة الزجاج . كالصبار
وفى عيونكم .
زوبعةٌ من نار .
هنا .. على صدوركم . باقون كالجدار
نُنظِّف الصحون فى الحانات
ونملأ الكئوس للسادات
ونمسح البلاط فى المطابخ السوداء
حتى ننال لقمة الصغار
من بين أنيابكم الزرقاء .
هنا .. على صدوركم . باقون كالجدار
نجوع .. نعرى .. نتحدى ..
ننشدُ الأشعار
ونملأ الشوارع الغضاب بالمظاهرات
ونملأ السجون كبرياء
ونصنع الأطفال .. جيلا ثائرا .. وراء جيل !
كأننا عشرون مستحيل
فى اللد . والرملة . والجليل ..

إنا هنا باقون
فلتشربوا البحرا ؟
نحرس ظلَّ التين والزيتون
ونزرع الأفكار . كالخمير فى العجين
برودة الجليد فى أعصابنا
وفى قلوبنا ؟ جهنم حمرا
إذا عطشنا نعصر الصخرا
ونأكل تراباً إن جُعنا .. ولا نرحل !
وبالدم الزكى لا نبخل .. ولا نبخل .. ولا نبخل ..
هنا .. لنا ماضٍ .. وحاضر .. ومستقبل .
كأننا عشرون مستحيل
فى اللد . والرملة . والجليل ..
يا جذرنا الحى تشبث
واضربى فى القاع يا أصول !

أغنية الفلاح البنَّاء

" تجلد يا قلبى
منزل السيد هو الوحيد ذو الطابقين
أنا الذى أحضرت لك الحجارة
حتى تورمت يداى
وفى النهاية حتى لم يقدموا لى فنجانا من القهوة
تجلَّد يا قلبى

لقد زرعت فى حديقة منزل سيدى
وردة وياسمينة
وزرعت أيضا شجرة ليمون
وبجوارها شجرة تين
ومرت بى سيدة القصر ولم تقل لى حتى عم مساءً
وفى صدرها زهرة من شجرة الليمون التى غرستها بيدى.
تجلد يا قلبى . "

ولكن كيف فكرتم فى تنظيم عرض منا نحن العرب ؟ أنا أعرف أنكم أيها الإيطاليون . من ناحية الموسيقى . متعودون ألحانًا أخرى مختلفة ، ألحانًا أخرى . صحيح أن أغانيكم من أول وهلة تبدو لنا بطيئة رتيبة؟ ولكنها مسألة تتعلق بتعود الأذن . ثم إن المهم ، أى ما يهمنا فى المقام الأول. هو أن تنشدوا لنا أنتم تاريخكم.

فـــــرنكا : فلنبدأ بك أنت . يا أصغرهم سنا . هل تحب حينما تكبر أن تصبح فدائيا .

الصــــبى : حينما أكبر ؟ ولكننى لست فى حاجة أن أكبر . فأنا فدائى فعلا .

فـــرنكا : عظيم. ولكننى أقصد فدائى حقا. يعنى مناضلاً. محاربًا.

الصــــبى : محاربًا ؟

فـــرنكا : يعنى . أنت الآن مثل الفسوخة . صح ؟

الصبى: ما معنى فسوخة ؟

فـــــرنكا : حاجة تجلب الحظ .

الصـــــبى : تجلب الحظ ؟ ولكن ما دخل الحظ فى كفاحنا ؟ هل نحن نلعب القمار ؟

فـــــرنكا : كلا . لا أقصد . لا تفهمنى بهذا الشكل ؟ أنا لم أقصد إهانتك .

الصـــــبى : لا . لا . أنا لم أشعر بالإهانة . ولكن يبدو أنك فهمت خطأ . أنت طبعا تتصورين أننى صبى صغير . لعلك تظنين أن هناك أشياء معينة تخص الكبار لا أستطيع أنا أن أفهمها ؟ وأن الحرب . لابد أننى أنظر إليها على أنها لعبة من نوع الكاو بوى؟ وليس باعتبارها شيئا مخيفا يلقى فيها الآلاف حتفهم ؟ اسمعينى . أنا كنت صغيرا . أصغر بكثير مما أنا عليه الآن . حينما اضطررت للنزوح مع أهلى من فلسطين. وننتقل إلى شرق الأردن لاجئين.

نشيد المقاومة

" يا شعب بالعصى والأيدى وبالمدى الحادة
لنقطع الدرب على القوى المضادة
لا لن تمروا ؟ لن تمروا
بورقة الحل ؟ وحبر التسوية
فالشعب أقوى من حراب التصفية
والشعب أبقى يا دعاة التصفية
لا ؟ لن تُقيِّدوا

سواعد الإعصار بالحبال
لن تذبحوا بالقشة الشلال
فشعبنا اختار طريق التضحية
ولتجرف الدماء حبر التسوية
ولن تمروا ؟ لن تمروا
يا شعب
ليس غير ساعديك والخنادق
وليس غير جُعبة الرصاص والبنادق
فلنفرد الدماء أجنحة
للثورة المسلحة
ولنقطع الدرب على القوى المُضادة "

وجدت نفسى وحيدا مع أعمامى وأخوالى . وهم فى حالة متيسرة . فى البداية لم أكن أعرف شيئا مما كان يحدث. ولكن فى المدرسة . كنت فى السنة الأولى الإعدادية . كان هناك زملاء أكبر منى سنا مشتركون فى العمل السياسى ؛ وقد بدءوا يشرحون لى ويعلموننى ؟

بعد انفصال الجبهة الديمقراطية الشعبية حدث نوع من الغليان بين الطلبة. أنا دخلت الجبهة الديمقراطية وكنت أقوم بأعمال كثيرة فى خلال المظاهرات ، كنت أنا الذى أنشد والآخرون يرددونها على هذا النحو :

تذكر أنك يجب أن تتعلم — أيها الفدائى
تتعلم كيف تحارب — أيها الفدائى

وأيضا كيف تفكر أيها الفدائى
تتعلم كيف تتكلم أيها الفدائى
لذلك يجب أن تسمع أيها الفدائى
ما يقوله لك الكبير أيها الفدائى
لا يجب أن تعامل الفقير مثلك أيها الفدائى
على أنه عدوٌ لك أيها الفدائى
حتى لو كان لا يفهم . أيها الفدائى
لو كان مع العدو . أيها الفدائى
فالسيد هو الذى يفسد عليه تفكيره أيها الفدائى
هو الذى يحكم عليه بالجهل ويمنعه من التعلم أيها الفدائى
يجب أن تعامله على أنه أخ شقيق أيها الفدائى
فقير مثلك أيها الفدائى
مستغل مثلك أيها الفدائى
يجب أن تتحدث معه أيها الفدائى
يجب أن تعلمه أيها الفدائى
ما يقوله الكبير أيها الفدائى
يجب أن تأتى معنا أيها الفدائى
لا يهم إذا كنت صغيرا أيها الفدائى
معنا أيضا صغار أيها الفدائى
معنا أبو شايف أيها الفدائى
معنا ريبى محمد أيها الفدائى
معنا الشعب أيها الفدائى

الصـــــبى : لم نكن نقوم بالمظاهرات وحسب . كنا نقوم بالدعاية فى معسكرات اللاجئين . وكنا نعلِّم القراءة والكتابة للفلاحين الأميين . كان هناك فلاح يسألنى دائما أن أقرأ له فى الكتب. فكنت أقرأ له. لكننى لم أكن أفهم شيئا مما أقرأ. عن الشيخ الذى كان يمهد الجبال والرفاق الطيبين والصحبة الجميلة ؟ ولكن الفلاح كان فى كل مرة يشرح لى ؟ كان هو يفهم كل ما تقوله الكتب .

عمى الذى كان بورجوازيا ابن سفاح . لم يكن يريد منى أن أختلط بالفقراء ؟ هربت من البيت وذهبت إلى الفدائيين . وفى أثناء أحد التدريبات . قفزت من خلال حلقة من النار . فاشتعلت النار فى سروالى . واحترقت ساقى كلها من القدم حتى أعلى الفخذ . وقضيت ثمانين يوما فى المستشفى . أعانى من آلام لا تطاق .

وحينما عدت إلى قاعدة الجبهة . أرسلونى من هناك إلى جبهة أخرى . وبعد عدة أيام . علمت أنهم يستعدون للقيام بعملية فى أرض فلسطين . عملية بالتنسيق مع جيش التحرير الفلسطينى بقيادة فتح. طلبت المشاركة فى العملية . فتعللوا بصغر سنى. وبالحروق التى فى ساقى. فاستولى علىَّ غضب شديد وصحت فيهم قائلا : "لماذا قبلتمونى إذن فى الجبهة ؟ لماذا جعلتمونى أتدرب ستة أشهر فى معسكرات التدريب . لكى أظل هكذا بلا فائدة.

آكل .أشرب كالبهائم ؟ لكى يتفرج علىَّ السياح باعتبارى من مخلفات القديسين ؟ "

وهكذا سمحوا لى بالاشتراك معهم ، وأصابتنى قذيفة فى ساقى السليمة ؟ قذيفة عيار ٣٨/٧ ماركة (**الناتو**) حلف شمال الأطلنطى ، وفى المستشفى تمكنوا من انتزاع القذيفة من ساقى بعد عدة أيام . بعد ذلك انتقلت إلى ساحة القتال فى معركة "جربد" فى سبتمبر الأسود . وشاركت فى القتال . وأطلقت من رشاشتى الكثير من الطلقات حتى التهبت ماسورة الرشاش ؟ وقد استشهد بجوارى أربعة من رفاقى . ثم انسحبنا إلى الأجراش . وفوق التلال هناك أمطرتنا الطائرات الإسرائيلية بالقذائف .

وحدث أن وجدت نفسى مع عشرة آخرين من الجبهة معزولين ومحاصرين ؟ ظللنا نطلق النار طول النهار . حتى عتمة الليل . كان معى صبى آخر فى مثل سنى . أصابه عيار نارى فى صدره . فمات بعد ساعتين دون أى شكوى أو أنين . وفى الظلام . تمكنت مع زميل آخر من نقله خارج دائرة الحصار . وصعدنا قمة أحد الجبال. وما إن أشرق نهار اليوم التالى حتى فوجئنا بمجموعة من جنود الأعداء تقبل نحونا . كانوا مدججين بالسلاح. وانتظرنا . أنا وعنتر رفيقى . حتى أصبحوا تحتنا . فانهلنا عليهم بكل ما كان معنا من طلقات. فلاذوا بالفرار

وهم يصرخون من الرعب. وأصيب عنتر بعيار فى بطنه. وأصبح عاجزًا عن الحركة . فقد كسرت إحدى ساقيه. فقال لى : " أسرع أنت قبل أن يعودوا ، أسرع . ولكن قبل ذلك أطلق علىَّ عيارًا و اقتلنى ؟ لا تتركنى أقع حيا بين أيديهم ؟ اقتلنى ." ما كنت لأفعل ذلك مع أى شخص فى الوجود . لكنه كان رفيقى . كان ينبغى أن أفعل ذلك . ثم نقلته إلى داخل أحد الكهوف . وكان للكهف باب فأغلقته عليه ثم ألقيت بالمفتاح . وأخذت الرشاش الذى كان معه (**كلاشينكوف**) وألقيت برشاشى . ثم انطلقت إلى حال سبيلى . وفى اليوم التالى . وضعونى فى السجن . لكننى لم أهتم .

أقسم لك أن هذا ليس كلاما يقال . أنا شاب . ولكن لا يهمنى أن أموت . إذا كان فى موتى فائدة لكفاحنا . لم تعد لى أسرة : أسرتى الفدائيون إخوانى . أريد أن أواصل حياتى معهم . أناضل من أجل الثأر لرفاقى الذين لقوا حتفهم . بالضبط كما تقول أغنيتنا : " فى مواجهة الظلم . فى هذا العالم . من أجل قومى الذين سلبوا أرضهم . من أجل شعبى . حتى لا يكون له سيد بعد الآن "

فـــــدائى : جاءتنى فكرة . يمكننا أن نروى لكم حادثا وقع قبل عدة أيام - هنا بالذات - فى المعسكر. قصة "أبو على" . أحد رجالنا الفدائيين . قتلوه هناك فى الوادى.

(إظلام . خارج المنصة يتصاعد لحن جنائزى .

" أنا إن سقطت فلست أول من يموت
ولست آخر من يموت
يا إخوتى يا إخوتى بدمى أخُط وصيتى
فلتحفظوا لى ثورتى بدمائكم بدمائكم
بجموع شعبى الزاحفة ؟
فتحٌ أنا .. أنا ثورةٌ .. أنا عاصفة
إن ماردٌ يهوى سينهض ألف مارد
لو ساعداً قطعوا سيعلو ألف ساعد
فالشعب كل الشعب ثائر ..
وعلى طريق الفتح سائر ..
وحملت قلبى قنبلة . أحمى مسير القافلة
فالشعب كل الشعب دوى عاصفة
فتحٌ أنا .. أنا ثورةٌ .. أنا عاصفة "

يدخل الفدائى الأول من اليمين . يجتاز المنصة . ينشد على طريقة المؤذن . الترجمة الإيطالية تعرض على الشاشة فى العمق .)

" يا كل الشعب
يا كل الشعب
أماماً فى الدرب الصعب
بالسونكى . بالأيدى
وبأحزمة النسف

وبعاصفة الفتح
أمامًا فى الدرب الصعب

* * *

أمامًا فى الدرب الصعب
أمامًا يا شعبى
ولتنحت طلقة نارك من عظمى
ولتصنع قنبلة من لحمى
ولتعبُر عاصفةُ الفتح
من عظمى
من لحمى
من هذا الجرح "

الفـدائى (١) : أواه ! أواه ! يا أهل القـرية ! يا أهل القـرية ! كـارثة وقـعت ! لقد مـات " أبو على " . اثنا عـشـر رجلا قـتلوه . قتلوه فى أحراش البلوط والخروب .

(يدخل بقية الفدائيين معا . حركاتهم وإيماءاتهم تعبر عن الحزن الشديد لموت الرفيق " أبو على " . من جهة اليمين يدخل فدائيون آخرون تتبعهم امرأة . يحملون جسد الرفيق الفقيد)

الفـدائى (١) : قتلوا " أبو على " . اثنا عشر رجلا قتلوه .

المـــرأة : كلا . لم ينالوه وهو يلوذ بالفرار . كان سيواجههم حتى وهو بمفـرده . هجم عليـه سـتـة منهم . أطلق النار على سيارتهم الجيب .

جميع القذائف التى كان يحملها .
أطلق جميع القذائف التى كانت فى الخزائن الثلاثين للرشاش .
أطلق عليهم .
وقضى نحبه . كان قد فارق الحياة .
بينما الخنازير ما يزالون يطلقون عليه النار .

(تخرج المجموعة التى تحمل الجثمان . الفدائى الثانى والثالث يواجهان الجمهور . الفدائى الأول ينشد الأغنية التى مطلعها " كلا . لا تبكوا يا رفاق " يقوم بالترجمة الفورية الفدائى الثانى .)

الفدائى (٢) : لا تبكوا يا رفاق
أبو على لم يمت ميتة مهينة
" جراحه كانت تقول : " لا "
أغلاله كانت تقول : " لا "
وفوق صدره يمامة أعطته كل ريشها
درعًا لجُرحه كانت تقول : " لا "
" لا " للذين باعوا واشتروا
خلخال غزة .
باعوا الشظايا واشتروا إوزة .
أيتها الإوزة !
كُفى عن الصياح لحظة
ولتسمعيه مرة

يقول : " لا "
آه عليه . لم يمت تحت أشعة " النيون "
بين الشمعدان والقمر .
آه عليه . لا بلاغ . لا جنازة خرساء
لا قصيدةٌ تنوح لا وتر .
أيتها الحجارة !
لو تسمحين لى ببيت شعر واحد
أقوله لكل لحية طويلة ومستعارة .
كفى عن الصياح لحظة
ولتسمعيه مرة يقول : " لا " .
جدار بيت واقف فى غزة
يُقتل كل يوم ألف مرة
أيتها الإوزة ! "

(بعد انتهاء الأغنية . يدخل فدائيان كل منهما يحمل طبلة ويدخل آخرون معا يصاحبون بالأيدى والإيقاع الحركى . وينشدون الأغنية التى تقوم المرأة بإلقائها بالإيطالية خلال المشهد كله .)

أيها الفلاح الذى حمل البندقية ليس عندك ما تخاف عليه
لن تفقد بموتك سوى الفقر الذى يصاحبك
أحبائى ..
أنا بالورد والحلوى
وكل الحب أنتظر .

أنا . والأرض . والقمر
وعين الماء . والزيتون . والزهر
وبياراتنا العطشى
وسكتنا . وكرم دوال ؟
وألف قصيدة خضراء
منها يورق الحجر .
أنا بالورد والحلوى
وكل الحب أنتظر .
وأرقب هبة الريح التى
تأتى من الشرق
لعل على جناح جناحها
يأتى لنا خبر
لعله ذات يوم يهتف النهر :
" تنفس أهلك الغياب
يا مصلوب .. قد عبروا ! "
لقد عادت الطيور المهاجرة
ويوما ما سأجد جميع رجالنا ونسائنا قد تحرروا .

(وبعد ذلك يغادر الفدائيون المنصة فى كورس وهم يقلدون طيران طائر البلشون . يدخل ثلاثة فدائيين حاملين كفنًا أبيض . يتوجهون ببطء ولكن بإيقاع نحو منتصف المنصة . فى الوقت نفسه يدخل الفدائيون الآخرون حاملين جثمان الفقيد : فوق لوح خشبى دمية

ملفوفة فى الكفن. أول الفدائيين ينشد أغنية " فوق النبع. أقسم لك " الباقون يتهيئون لدفن الفقيد . الفدائيون الثلاثة ينتقلون إلى يمين المنصة . الترجمة الإيطالية تظهر فوق الكفن)

غابة الزيتون كانت مرة خضراء
كانت .. والسماء
غابة زرقاء .. كانت يا حبيبى
ما الذى غيرها هذا المساء ؟
أوقفوا سيارة العمال فى منعطف الدرب
وكانوا هادئين
وأداروا إلى الشرق وكانوا هادئين .
كان قلبى مرة عصفورة زرقاء .. يا عُش حبيبى
ومناديلك عندى . كلها بيضاء . كانت يا حبيبى
ما الذى لطخها هذا المساء ؟
أنا لا أفهم شيئا يا حبيبى !
أوقفوا سيارة العمال فى منعطف الدرب
وكانوا هادئين وأداروا إلى الشرق وكانوا هادئين .
لك منى كل شىء
لك ظلٌ لك ضوءٌ
خاتم العرس . وما شئت
وحاكورة زيتون وتين
وسآتيك كما فى كل ليلة

أدخل الشباك . فى الحُلم . وأرمى لك فُله
لا تلمنى إن تأخرت قليلاً
إنهم قد أوقفونى .
غابة الزيتون كانت دائما خضراء
كانت يا حبيبى
إن خمسين ضحية
جعلتها فى الغروب
بركة حمراء .. خمسين ضحية
يا حبيبى .. لا تلمنى ..
قتلونى .. قتلونى ..
قتلونى ..
" فوق النبع . أقسم لك
طعنات الخنجر أفضل عندى
من أن يحكمنا غاصب
سأصعد قمة الجبل
حيث أشرف على الوادى بأسره
سأصيح قائلا :
أيها الشعب الثائر
يا ريح بلادى
يا من تملئين الأشرعة فوق النهر
املئى أيضا طيلساناتنا
ادفعينا للكفاح "

(الفدائيون . بعد وضع جثمان " أبى على " فوق الأرض ينشدون على لحن "بلادى بلادى ")

ستدفعنى بموتك يا " أبا على "
كأنك النسر والأسد

(تدخل المنصة أم " أبو على ")

الأم : لا . يا رفاق . أرجوكم . لا تنشدوا له كما تنشدون للأبطال . أنا واثقة أن " أبا على " لن يكون راضيا بهذا الإنشاد . أنا واثقة أنهم حينما أطلقوا عليه أخفى وجهه بيده . كان أبو على يخشى الموت .

الفدائى (١) : اسكتى . لا تقولى ذلك . نحن فى حاجة لمثل أعلى فى البطولة .

الكورس : نحن فى حاجة لمثل أعلى فى البطولة
من أجل الأطفال الذين يتدربون فى المعسكرات
ينبغى ألا يخافوا من الصهاينة
ولا من أى عدو آخر .

الأم : لو كان هناك الآن . لقال لكم إنه كان خائفا . لقد تمكن من التغلب على نفسه. لم يهرب . من المؤكد أنه كان يرتعد خوفا . يجب أن تقولوا ذلك . لا تكذبوا .

الفدائى (١) : لا . لن نقول لهم ذلك . الشعب فى حاجة إلى أبطال خالصين ومنيرين .

الكورس : " لا . لن نقول لهم ذلك .
الشعب فى حاجة إلى أبطال خالصين منيرين

الأم : لا . إن الأبطال الخالصين المنيرين هم أبطال حكايات السلاطين والشيوخ . أما حكاياتنا . فينبغى أن تكون حكايات حقيقية حكايات بشرية . بشر يتعثرون. يتشككون . بشر يشعرون بالخوف . ولكن لا يهربون من الموت . الذين لا يتشككون ولا يخافون هم المتعصبون الذين لا يعقلون . يخشون السخرية . ينتفخون مثل القرب المصنوعة من جلود الحمير . وهم يثيرون السخرية والاستهزاء . لا يصلحون للثورة .

الفدائى (٢) : لقد تمكنت من إقناعنا . هذا ليس نشيد " أبى على " .

الكورس : " أجل . لقد تمكنت من إقناعنا "

(الفدائيون وهم يواصلوا القيام بإجراءات الدفن . ينشدون لحنا آخر . مختلفا تماما . فى الإيقاع والكلمات عن لحن " بلادى بلادى ") .

الفدائى (٣) : أيها الرفاق . لا تضعوا " أبا على " فى القبر . قبل أن ننشد له . تؤدى له طقوس الرغبات والوداع .

الفدائى (٤) : كلا . هذه طقوس قديمة . لا تؤدى الآن .

الفدائى (٣) : لماذا لا تؤدى الآن .

الفدائى (٤) : لقد منعوها .

الفدائى (٣) : من الذين منعوها ؟

الفدائى (٤) : الإقطاعيون . الشيوخ . منذ سنوات عديدة .

الفدائى (١) : ألم تسأل نفسك عن السبب ؟ لأن طقوس الشعب هى حضارة الشعب . ودون رقصات الشعب ، دون الثقافة

يصبـح الشـعـب مـثل الشـخص الأبكم الأصـم . يصبح مـثل الطفل الذى قطعوا له حبل السرة . وهو مـا يزال فى بطن أمه .

الفـدائى (٤) : شـخص مـخنوق . من السـهل إخضـاعه والسيطرة عليه . مولود عبداً .

الفـدائى (٢) : لذلك . فـإذا أردنا أن نتـحـرر . ويكون لنا السلطان فـإن علينا أن نبدأ باستعـادة ثقافتنا وإحيائها .

الفـدائى (٣) : فلنحى مـوتانا كـمـا كنا نفـعل فى الماضى مع من كـانوا يموتون وهم يناضلون .

الفـدائى (٤) : صـحـيح . أبو على مـات كـمـداً . لم يكن أمـامـه الوقت الكافى لينادى أبنـاءه ولا زوجتـه إلى فـراشـه . ليـودعـهم كما ينبغى . فمن الضرورى أن يقـوم بذلك الآن .

الفـدائى (٢) : تكلم يا عمر . كما لو كنت أنت " أبا على " أنشـد أنشودة رغباته ووداعه .

الـكــورس : أبو على . أنشد لنا رغباتك ووصيتك .

(فى خـلال هذه الأغنية . يحمل الفدائيون لوح الخشب وعليه جثمان الفقيد إلى منتصف المنصة . فوق مقعدين . يضعـون الدمية فوق الأرض . وفى مكان الفقيد يجلس عمر أعز أصدقاء " أبو على ")

الفـدائى (١) : لا تواروني فى الرمال يا رفاق .
لا تواروني فى الصلصال ولا المستنقعات
فى التراب أريد أن تواروني

فى التراب أريد أن أذوب . أصبح غذاءً
للشجرة التى ستغرسونها
اغرسوا فوق قبرى شجرة مشمش
ستأتى زوجتى لتجنى الثمار .
حينما تنضج .
وسيأكل منها أبنائى .
وغضبى على الأسياد وبغضى لهم
سيختلط بلحمهم ويلتهب فى أجسادهم .
أنا الأرض
أنا الأرض .. لا تحرمينى المطر
أنا كل ما ظل منها إذا
زرعت جبينى شجراً
وحولت شعرى كروماً
وقمحاً
وورداً
لكى تعرفينى
فجودى مطراً .
أنا يا سحابة عمرى جبال الجليل
أنا صدر حيفا
وجبهة يافا
فلا تهمسى : مستحيل .
ألا تسمعين خطى طفلى القادمة

على عتبات فؤادك ؟
ألا تبصرين عروق جبينى
تحاول لثم شفاهك ؟
أنا فى انتظارك أصبح شعرى ترابًا
وصار حقولا
وأصبح قمحًا
وأضحى شجرًا .
أنا كل ما ظل من أرضنا
أنا كل ما ظل مما عشقت
فجودى ؟ وجودى
وجودى مطرا .

(فى نهاية هذه الأغنية. يحمل الفدائيون صديق "أبى على" ليجلس فوق زاوية خشبة الميت . ويجلسون متحوطين مخاطبين إياه . فى الوقت نفسه . المرأة تتجه إلى يمين المنصة . وتعلق على الحوار الذى يجرى بين الفدائيين)

المــــــرأة : إنهم يسألون " أبا على " لماذا انضم إلى الفدائيين . من جعلك تفعل ذلك ؟

كان لك عمل تتعيش منه .

الفدائى (٣) : كنت تعـمل كـهـربائيـا . وكنت تصلح الراديوهات والتليفزيونات .

الفدائى (٤) : كانوا يستدعونك فى كل مكان . فى كل المقاهى . حتى فى بيوت الأجانب .

الفدائى (٣) : كنت صديقا للجميع . وكنت على علاقة طيبة بالجميع .
لماذا انضممت إلى الفدائيين ؟

الفدائى (١) : آه . ليس من السهل أن أشرح لكم . أولا . حساباتى
كانت مختلفة تماما . كلا، لم أكن من النوع الذى لا يبالى.
لم أكن من أولئك الذين يقولون : " ليذهبوا جميعا إلى
الجحيم . ولأهتم أنا بشئونى . بطنى . هى وطنى " كلا .
حينما شاهدت الإسرائيليين يطردون قومى من أراضيهم.
شعرت أننى واحد منهم . فعملت فى معسكرات اللاجئين
وشاركت فى جميع التظاهرات ضد الظلم . وجمعت
التبرعات للهلال الأحمر . وكنت أصيح بأعلى صوتى
"عاشت الأمة العربية أمة واحدة . عاشت الأمم المتحدة .
عاش الروس الذين يقدمون لنا السلاح . أى الذين
يبيعون لنا السلاح". وذات يوم تشاجرت مع أبى لأنه قال:
"ما أكثر الذين اتفقوا على حماية الحَمَل ! عملية قذرة"

الفدائى (٣) : ماذا كان يعنى بقوله هذا ؟

الفدائى (١) : أجابنى قائلا : " الحمل هو الشعب الفلسطينى فإذا كان
الذئب والثعلب ، وابن آوى والأسد يريدون جميعا حمايته
من النمر . فذلك لأنهم يريدون جميعا أن يلتهموه " .
فصحت فيه وأغلظت له القول ، بل شتمته .

الفدائى (٤) : وهل طردك أبوك من البيت ؟

الفدائى (١) : بل ابتسم لى بكل حنان . وقال : " سيحدث ما حدث على
عهد الشيخ قسّام عام ١٩٣٦ . حينما كان الإنجليز هم

المهيمنون على كل شيء . وحمل الشيخ قسام بندقيته مع الفلاحين ليطرد الإنجليز. حينئذ انضم الشيوخ والإقطاعيون – في البداية – إلى صفوفنا. وكانوا يعلنون الحرب المقدسة. ثم اتفقوا مع رجال الأعمال والبنوك في إنجلترا وباعونا بأربعة دراهم. وانتقموا أيضا من الشيخ قسام وقتله الإنجليز. فالشيخ في نظرهم لا يجب أن ينضم إلى الفقراء.

عاشوا .. لم تصحبهم كلمة
ماتو .. لم تصحبهم كلمة
فالفصحى والأوراق المصقولة والإنشاء
والحبر الغالي والأقلام الفضية
كانت مسبية
يلهو بمفاتنها النبلاء ..
والناس البسطاء
عاشوا .. لم تصحبهم كلمة
ماتوا .. لم تصحبهم كلمة
فاغرف من أعماق البئر العذراء
واسق العامل والفران وأطفال الحارة
فالناس ظماء
اكتب عن شحذ الهمة
اكتب عن أحلام الأمة
طوبى للحرف الشامخ في الليل منارة

والعار لأبراج العاج المنهارة
وسبايا النُقلاء !

(يبسط الكفن وخلفه الفدائيون الذين يختفون ينشدون أغنية الشيخ قسام . وهم ينقلون إلى مقدمة المنصة وهم ما يزالون مختفين . بينما فوق الكفن تشاهد ماسورات بنادق تمر . عند وصول الفدائيين إلى مقدمة المنصة . تظهر رءوسهم وتبرز كاملة . كل فدائي يمسك الكفن بإحدى يديه وبالأخرى يمسك بندقية . الجميع يقلدون مسيرة الجمال على إيقاع أغنية الراهب قسام)

أغنية الشيخ قسام

أيها الشيخ قسام
يا شيخ قسام . يا فقيرا مثلنا
أربعون عاماً مضت على اختفائك
مازلنا نذكرك بعد دفنك بأربعين عاما
حينما كنت تقول لنا :
الأغنياء لا يمكن أن يحاربوا من أجل حريتنا
لقد وصل الإنجليز .
سلبونا كل شيء
والأغنياء والإقطاعيون سيتفقون فيما بينهم
فالأغنياء دائما يتفقون فيما بينهم

يتحدثون لغة واحدة .
قاموسهم مكون من أوراق البنكنوت
أيها الراهب قسام
حين صلبت على وتر القاف النصراوية
عز عليَّ الصمت
كان بودى أن أكتب شيئا بالحناء
قبل رحيل خطاهم صوب الشرق
كان بودى ؟
أن أقلب أرضا .. وزمانا .. وسماء
كى ترجع يا شيخى طفلا
يدرج فى ساحة عين العذراء ..
يعترف العائد من جرح طفولته أن الأشواق
لا تصمد فى حر الأشواق
مازلنا نشهد غربتنا
أعواما .. فى ظل اللقيا
وننوح بباب الطاق .. !

(الفدائيون يتراجعون بينما البنادق والرءوس تختفى ببطء خلف الكفن . من خلف الكفن يظهر الفدائيون فى مسيرة الجمال مقلدين الكفاح المسلح ضد الإنجليز . جميعهم الآن ماثلون يمين المنصة يختفون من جديد على إيقاع " أيها الراهب قسام " خلف الكفن ويخرجون من المسرح عند انتهاء الأغنية . المنصة خالية .)

(من أحد الكالوسين . تسمع صرخة امرأة . يدخل فدائى يتبعه آخرون من الكالوس المقابل)

الفدائى (٢) : وصلت زوجة " أبى على " وأخواتها . جئن يبكين وينتحبن معنا .

الفدائى (٣) : لا تسمحوا لهن . أوقفوهن ! لا يجب أن يرينه .

الكورس : لماذا ؟

الفدائى (١) : التقاليد . العرف .

الفدائى (٤) : أى عرف ؟

الفدائى (٣) : عرف كل زمان . النسوة إذا كن يبكين الميت فى الدار فلا تستطيع أى امرأة أن تأتى إلى القبر للاشتراك فى الدفن .

الفدائى (٤) : عجبا . إلى الجحيم أنت وأعرافك هذه . دعوا النسوة يدخلن .

الفدائى (٥) : عجبا . فى البداية قلتم علينا احترام التقاليد . والآن تضربون بها عرض الحائط ؟

الفدائى (٤) : هذه تقاليد الكهنة . وليست تقاليد الشعوب .

الفدائى (١) : حقا . هى قضية الخطيئة الأولى للمرأة . إن المرأة مخلوق نجس. ولو جاءت تبكى هنا على القبر . فإنها ستنقل العدوى إلى روح الفقيد وتثير عند الرجال أفكار السوء .

الفدائى (٥) : عجبا . أنا لست رجعيا . ولكننى أقول لكم . إن امرأة جميلة فى الحداد تبكى وتنتحب وتمزق ملابسها . وتخرج عن طوعها . يمكن أن تثير عندى بعض الأفكار الخبيثة .

الفـدائى (٢) : ولكن من الذى يمكن أن يفكر فى الجنس فى مـثل هذه الأحوال ؟

الفـدائى (٥) : أنا دائمـا أفكر فى الجنس فى مـثل هـذه الظروف . أنا أمزح .

الفـدائى (٣) : الحقيقة هى أننا ثوريون فيما يختص بالفعل . أما فيما يتعلق بنسائنا فنحن رجعيون .

الفـدائى (٤) : هذا صحيح . بالنسبة لنا . فالنساء دائما أشياء بداخلها يكمن فقط ما نطلق عليه الشرف والكرامة .

الفـدائى (٢) : المرأة هى عندنا جنس وحسب .

الفـدائى (٣) : لا يهم أن نكون مستعمرين، مستغلين . عبيدا مسخرين . المهم ألا نكون تيوسا بقرون .

الفـدائى (٥) : براڤـو ! يجب أن نضع هذا فى رءوسنا يجب أن نفـهم هذا جيدا : التيس الحقيقى هو المستغل .

الفـدائى (١) : أنت على حق . إن ثورتنا تبدأ بالكرامـة الإنسـانيـة التى يجب أن نقدمها لنسائنا.

الـكـورس : سنكون أقوى من أعدائنا لو نجحنا فى احترام نسائنا .

أغنية عن نسائنا

أمى ليست بطنا و حسب
انكشف لى ولأبى
حينما ولدت
نساؤنا لسن فقط بطونا

تنكشف لنا ولمستغلينا
لسن فقط عينين ناعستين خبيثتين :
إنهن العقل والقلب بالنسبة لقومنا جميعا .

(الجميع وهن يستأنفن النحيب يتوجهن نحو اليسار . فى مواجهة زوجة "أبو على " التى تدخل الآن يعزينها ويصحبنها إلى جثمان زوجها)

الزوجة : كلا ! دعونى ! لن أشق ثيابى ولن أقطع شعرى . ولن أتمرغ فى التراب .

الفدائى (٣) : كنا نقوم بطقوس الوداع على الطريقة القديمة .

المرأة : أنا أيضا عندى بعض الأسئلة. أريد أن أوجهها لأبو على. أنا لم أعد أدرى عنه شيئا طوال الأشهر الأربعة الماضية.

الفدائى (٢) : يا محمد : " أبو على " كان معك فى الأيام الأخيرة .

الكورس : نعم . محمد كان معه .

الفدائى (٥) : كان معه حينما قبضوا عليه فى عجلون . وقد عاشا معا فى زنزانة واحدة طوال فترة السجن .

الكورس : نعم . طوال فترة السجن .

المرأة : تقدم يا محمد . قم أنت بدور " أبى على " .

الكورس : انهض يا أبو على وقص علينا وصيتك ووداعك .

(الفدائيون يتوجهون ليجلسوا فوق مقعد حول الزوجة وصديق أبو على الذى يتحدث مكان الميت . خلال هذا الحوار تقدم زوجة أبى على للحاضرين مشروبا . وتضع كوبًا بجوار جثمان الفقيد)

الزوجـــــة : يا أبا على . ما الذى ذهب بك ؟

أبـو عـلـى : لقد تجمعنا هناك بعد معركة .

المـــــرأة : والمعركة التى وقعت ؟

أبـو عـلـى : نعم . لقد أدركنا أن الجو فى المدينة غير ملائم .

المـــــرأة : كيف ذلك . ألم تكونوا تملكون فى أيديكم زمام الأمور ؟

أبـو عـلـى : لقد أشاع كثيرون أن معركة عمَّان كانت انتصاراً للمقاومة الفلسطينية . نعم ، هذا صحيح ؛ فلأول مرة نجحنا فى تحريك سكان الأحياء الفقيرة - العمال - الذين حملوا البنادق معنا . ولكن على المستوى العسكرى. كانت المعركة كارثة . كنا فى ذلك الوقت ننتمى إلى فتح . كان لنا راتب كافٍ وكنا نرتدى بدلة جميلة . وكنا ننام فى فراش حقيقى .

المـــــرأة : لا تقل إنكم انضممتم إلى فتح لكى تتمتعوا بهذه المزايا ؟

أبـو عـلـى : كلا؟ فى كل يوم كنا نغامر بحياتنا. ولكن فى خلال المعركة بدأنا نعرف أشياء كثيرة . أولاً . عرفنا أن الكارثة سببها أننا على المستوى العسكرى كنا ما نزال منظمين على طريقة الجيوش التقليدية . وأننا كنا نتصرف بالعقلية نفسها . فالواقع أننا قبلنا الدخول فى المعركة فى المكان الذى حدده العدو لضربنا . وكان الانسحاب أو الهروب يعد إهانة . كنا نتحدث كثيرا عن معركة الشعب . والحقيقة أنها كانت معركة مباشرة . معركة مثقفين وعسكريين بورجوازيين . منفصلين تماما عن الجماهير .

الجماهير كان ينبغى أن تناضل وحسب . فى تلك الظروف أدركنا شيئا من الدور الذى كان يلعبه الاتحاد السوفييتى فى هذه العملية .

فـرنكا : هذه رسالة أخرى أرسلها الفدائيون إلى بريجينيف وكوسيجين .

(فى أثناء قراءة هذه الرسالة تنتقل الزوجة إلى مقدمة المنصة)

الأعزاء بريجينيف وكوسيجين . إن الأمريكان والرأسماليين والإمبرياليين . بتطبيق خطة روجرز . وجدوا الفرصة سانحة لوضع الشعب الفلسطينى كله داخل معسكر تعذيب نازى كبير . وهو الضفة الغربية . وهذا يعنى حبس الشعب بأكمله داخل عدة كيلومترات مربعة . وإجباره على العيش مكدسا فى انتظار الموت جوعًا . لقد سبق للأمريكان تطبيق هذا الأسلوب مع الهنود الحمر أصحاب الأرض الحقيقيين فى القارة الأمريكية . والذين لم يبق منهم الآن على قيد الحياة سوى بضع مئات . يذكروننا بوحشية الاستعمار الأمريكى .

(الفدائيون جميعا ينهضون من فوق المقاعد وينتقلون إلى مقدمة المسرح . حول المرأة . وهم مواجهون للجمهور)

كوسيجين و بريجينيف . نحن شعب فلسطين . نحن الشعب العربى . نتهمكم بالاشتراك فى هذه الجريمة

الكبـرى . ولن نغـفـر لكم هذا التـواطؤ . وهـذه الخـيـانة . ليست خيانة الشعوب العربية وحدها .

(الفدائيون ينشدون لتسقط المؤامرة)

لتسقط المؤامـرة لتسقط المؤامرة
ولنقطع اليـد المتـاجـرة
بلحـم شعبنـا بجـرح أرضنا
لن تصلبوا شمسى على وحل المؤامرة
لن تجلدوا بالقش ساعد العواصف المدمرة
لن تشنقوا حناجر البنادق المزمجرة
فإن شعبنا أقوى من المؤامرة
وإن شعبنا أبقى من المؤامرة

الـزوجـــــة : استمر يا " أبا على " فى حكايتك .

أبـو عـلـى : حيث كنا أكثر أمنا وسلاما . كان معنا حوالى مائة من الفدائيين . كانوا قلة ولكنهم يساوون الآلاف . وقد ظلوا يقولون لنا :

الفدائى (٢) : إننا نرتكب خطأ للمرة الثـانيـة . كـمن يسـتـجـيـر من الرمضاء بالنار .

أبـو عـلـى : هكذا كانوا يقولون بالضبط .

الفدائى (٤) : ليس من العـقل أن نظل هنا مكدسـين . فى انتظار أن يفاجئونا مرة أخـرى فيهاجمـوننا . أو يصطـادوننا . أو يوقعوننا فى الفخ .

الفدائى (٦) : يجب أن نتوزع فى القرى . فى بيوت الفلاحين . وفى المصانع . وفى المزارع .

الزوجـــــة : كانوا على حق . أليس كذلك ؟

أبـو عـلـى : مؤكد. لكن قادتنا لم يفهموا . كانوا صما بكما . لم يروا أن نتفرق فى المصانع أو بين الفلاحين وفى المزارع . فالمثقفون يحبون التجمعات .

الزوجـــــة : وهكذا بقيتم هناك فى انتظار أن يحاصروكم ويجهزوا عليكم .

الـكـــورس : وحدث ما كان فى الحسبان .

أبـو عـلـى : كنا ثلاثة آلاف . فقتلوا منا أكثر من ستمائة . قليل منا تمكنوا من الفرار . وأودعنا السجون . ألفان وثلاثمائة .

(تمثيل صامت لعملية القبض)

فرقة من الجبهة الديمقراطية الشعبية تمكنت من الإفلات. لكنهم عادوا لكى يفجروا المواقع التى تركناها خلفنا بما فيها من أسلحة ومعدات . فتمكن منهم بعض جنود الأعداء . واقتادوهم جميعا إلى معسكر التعذيب . وعند نزولنا من الناقلات كان فى انتظارنا حوالى مائة من الحرس فى الزى الأمريكى . فبدءوا يضربوننا بالعصى والسلاسل الحديدية .

(فى الوقت نفسه تجرى بالتمثيل الصامت عملية الاستجواب : جميع الفدائيين يعتمدون فى عمق المنصة)

ثم بدءوا ينادون علينا ويوزعوننا : نحن أعضاء فتح من ناحية . وأعضاء الجبهة من ناحية أخرى ؛ كانوا يعرفون أسماءنا نحن أعضاء فتح . وجعلوا يعذبون الآخرين . ويضربونهم بالأحذية . ولكنهم لا يتكلمون .

(أداء صامت)

لماذا يخافونهم ؟

ذات يوم وكما هى العادة . كانوا يضربون بعض أعضاء الجبهة . فانبرى حوالى عشرة من أعضائنا – أعضاء فتح – يصيحون ساخطين معترضين على تلك المعاملة . وعقابا لنا . أرسلونا لكى نعمل فى الحقول مع الفلاحين .

(أداء صامت يمثل أعمال الفلاحين . الفدائيون وهم ينفذون الشغل ينشدون :)

هناك أدركنا حقيقة كبرى . فبالنسبة لنا كان هذا العمل يعد عقابا . أما بالنسبة للفلاحين فهذا العمل مستمر طيلة الحياة .

أغنية فرعون

اجتاز فرعون الصحراء فوق عربته .
ولكن من الذى صنع له عجلات العربة ؟
من الذى صمم له العربة ؟
حداد فقير من الفرات .
ومهندسو الأهرامات .

شيدوا مقبرة خوفو .
بالمسطحات المائلة .
التى أخذوها عن الفلاحين .
وأرشميدس اكتشف اللولب لضخ الماء
سرق الفكرة منا نحن فلاحى النيل .
كهنة فرعون
يراقبون القمر والنجوم
ليعرفوا الطالع بالنسبة لفرعونهم .
أما نحن الفلاحين .
فنتطلع إلى القمر والنجوم
لكى نعرف متى نزرع . ومتى نحصد .
كل المحصول لسيدنا الآمر الناهى .
أما نحن الذين أعطينا كل شىء
فقد أدركنا أننا كل شىء :
العجلة ولولب أرشميدس
والحب والأهرامات .
حينما تدرك ذلك .
يكفى أن نتعانق جميعا .
حينئذ . فرعون وكهنته
سيموتون من الفزع .

* * *

نهاية الجزء الأول

الجـــــزء الثانى

(بعض الفدائيين الجالسين فى حلقة بين الآخرين . يرددون حكايتهم)

فـــــرنكا : الجزء الذى شاهدتموه من العرض لا يكفى بطبيعة الحال وحده لإعطائكم فكرة عن قصة كفاح الشعب الفلسطينى. إذا لم تسمعوا مع الأناشيد والطقوس حكاياتهم أيضا . وحكاية صحوتهم ووعيهم . وكيف أصبحوا ثواراً مناضلين.

يا حسن . ابدأ أنت فقص علينا قصتك .

صوت خارجى (١) : أنا عامل . لم أولد فى فلسطين . فأنا سورى انضممت إلى الفدائيين وأنا صغير .

صوت خارجى (٢) : إننى أتذكر ذلك جيدا . حينما وصل الإسرائيليون كنت طفلا ، وكنت أسكن هناك مع أمى وهى فلسطينية . وصل الإسرائيليون قريتنا بملابسهم الملونة . بأسلحتهم الحديثة . وعجرفتهم . وادعائهم بأنهم شعب الله المختار . فوق ذلك كله . كان يبدو أن معهم الكثير والكثير من الدولارات لشرائنا جميعا. لكنهم لم يشترونا. بل طردونا.

وكانوا يقولون : " هذه منطقة عسكرية " . "نزع ملكية قانونية " ." هذه المنطقة نحتاجها لإنشاء مطار . أفراد بعض العائلات تحصنوا فى بيوتهم الفقيرة . فما كان من الإسرائيليين إلا أن فجروها ودمروها فوق أهلها . كما حدث فى دير ياسين . دمروها بكل مافى داخلها . هل كان هؤلاء الإسرائيليون هم الذين تعرضوا للاضطهاد وخرجوا يبحثون لهم عن وطن ؟ ما الفارق بينهم وبين النازيين الذين عذبوهم ؟ لماذا ينتقمون منا نحن؟ وتعرضنا للإرهاب. فاضطررنا للهروب. كنا ضعفاء بلا ناصر ولا معين. شيوخنا انتقلوا إلى مناطق أكثر أمنا . إلى لبنان والأردن بالأموال التى سلبوها منا . حملنا معنا بعض المتاع . كان لابد أن نهرب . ثم قام رجال ديّان بإقامة أسوار حول المساحات القليلة من الأراضى التى بقيت للعرب . كثيرا منا ظلوا داخل هذه الأسوار . مسخرين من الدرجة الثانية . خاضعين للتمييز العنصرى والقهر والموت جوعًا ؟ مضطرين لإبراز أوراقنا مرتين . وثلاث مرات . وعشر مرات فى اليوم الواحد .

فـــــرنكا : حول الحياة القاسية التى يعيشها عرب فلسطين نظم الشاعر محمود درويش هذه الأبيات .

أنا عربى ؟

صوت خارجى (٣) : أنا أيضا سجنونى . حكموا علىَّ بالأشغال الشاقة مرتين فى فلسطين . وأنا أيضا عامل . عملت فى المناجم

حفاراً . وحمالا فى أحد المصانع الإسرائيلية : فى العام الماضى . حدث إضراب عام . فقام الإسرائيليون بتكديس العرب المضربين داخل قفص كبير . ثم أدخلوا فى القفص حوالى عشرة من العمال الإسرائيليين . كانوا هم المجموعة التى ظهرت فى الإضراب بشكل ملفت للأنظار .

لم يعد يهم بالنسبة لهم التمييز العنصرى . فمنذ اللحظة التى ثاروا فيها على السيد . انحدروا فوراً إلى مستوانا نحن العرب . والآن فهم عرب مثلنا .

صوت خارجى (٤) : حينما كان ناصر ما يزال على قيد الحياة . كنت أحبه كثيرا . كنت ناصريا ومتعصبا للناصرية . مازلت أذكر الأغنية التى ودعناه بها :

الرجل ذو الظل الأخضر

نعيش معك
نسير معك
نجوع معك
وحين تموت
نحاول ألا نموت معك !
ولكن .
لماذا تموت بعيدا عن الماء
والنيل ملء يديك ؟

لماذا تموت بعيداً عن البرق
والبرق فى شفتيك ؟
وأنت وعدت القبائل
برحلة صيف فى الجاهلية
وأنت وعدت السلاسل
بنار الزنود القوية
وأنت وعدت المقاتل
بمعركة تُرجع القادسية
نرى صوتك الآن ملء الحناجر
زوابع
تلو
زوابع ..
نرى صدرك الآن متراس ثائر
ولافتة للشوارع
نراك ؟ نراك ؟ نراك
طويلاً
.. كسنبلة فى الصعيد
جميلا
.. كمصنع صهر الحديد
وحُرا ..
كنافذة فى قطار بعيد ..
ولست نبيا .

ولكن ظلك أخضر
أتذكر ؟
كيف جعلت ملامح وجهى
وكيف جعلت جبينى
وكيف جعلت اغترابى وموتى
أخضر ؟ أخضر ؟ أخضر ..
أتذكر وجهى القديم ؟
لقد كان وجهى يحنَّط فى متحف إنجليزى
ويسقط فى الجامع الأموى
متى يا رفيقى ؟
متى يا عزيزى ؟
متى نشترى صيدلية
بجرح الحسين .. ومجد أمية
ونبعث فى سد أسوان خبزًا وماءً
ومليون كيلواطٍ من الكهرباء ؟
أتذكر ؟
كانت حضارتنا بدويا جميلاً
يحاول أن يدرس الكيمياء
ويحلم تحت ظلال النخيل
بطائرة .. وبعشر نساء
ولست نبيا
ولكن ظلك أخضر ..

نعيش معك

نسير معك

نجوع معك

وحين تموت

نحاول ألا نموت معك !

ففوق ضريحك ينبت قمح جديد

وينزل ماء جديد

وأنت ترانا

نسير ؟ نسير ؟ نسير ..

لم يخطر ببالى على الإطلاق أنه كان يمثل لواء البرجوازية العربية الجديدة أكثر من لواء العالم العربى . بل لم أكن أدرك أن على صيحة " الحرب المقدسة " بدأ صراع بين البرجوازية الرأسمالية العربية المصرية والسورية والعراقية . وبين الرأسمالية الإسرائيلية يعضدها رأس المال العالمى .

باختصار . فإن الإقطاعيين فى الشرق الأوسط وقد تحولوا إلى متعهدين ومقاولين من خلال نزع أملاك الأجانب . قد أدركوا أن أفضل طريقة للاستغلال هى تسخير اليد العاملة ...

فمن الغباء تركها للأجانب . كأنما قالوا " اليد العاملة العربية ملكنا نحن. ونحن نستغلها ونسخرها. لوجه الله !

عاشت حرية الاستغلال ! عاشت حرية تسخير الشعب العربي الواحد .

وما لبثنا أن أدركنا موضوع . يجب أن تتهيأ لكي تضرب البرجوازية . ولكن هناك أولا إسرائيل التي ينبغي ضربها . فهل من الممكن التعاون مع البرجوازية الوطنية لضرب الرأسمالية الإمبريالية ؟

في الصين استطاع الحزب الشيوعي بقيادة " ماو " أن يفعل ذلك . وفي فيتنام استطاع " هوشي مينو " أن يحقق ذلك أيضا . فهل يمكن عمل ذلك أيضا هنا في فلسطين ؟ إن تحقيق التعاون مع عدو يلزمه بعض أوراق اللعب . أي قوة. وعندنا في فلسطين وفي الأردن . هل هناك بروليتاريا منظمة وواعية ؟ لا . هناك بروليتاريا تناضل بالكامل تقريبا من خلال منظمات مهيمنة يديرها برجوازيون . لنتكلم عن منظمة فتح وغيرها . عند تقديم الحسابات لا يضع البرجوازيون أقدامهم بيننا مطلقا . علينا أولا أن نكبر وننمو . ونؤمِّن حدودنا إذا كنا لا نريد أن نموت في المهد .

لذلك ينبغي إعطاء البنادق للشعب وتدريبه على القتال وإقناعه بأنه مع الثورة لا يخسر شيئا . بل يجني كل شيء . ينبغي تعريفه بأعدائه الحقيقيين. إذن فهي قضية دعاية . ولكن ما السبيل لعمل دعاية ثورية في ظروف ثقافية مثل ظروفنا ؟ أوضاع تقوم على الطاعة العمياء

للأسياد . إن رسول الله محمداً بالنسبة للفلاحين هو الذى خلصهم من الكثير من الموبقات . ويأمرهم بالتطهر للصلاة . بل ويحضهم على أن يحبوا جيرانهم حتى لو كانوا من جنس آخر . الوحيدون الذين استطاعوا منا مخاطبة الفلاحين وإقناعهم بالثورة . فعلوا ذلك أيضا من منطلق إسلامى على هذا النحو :

ذات يوم جاء رجل إلى الخليفة عمر بن الخطاب يشكو له أن ابن عمرو بن العاص كان يسابق ابنه . فسبقه ابنه . فضربه ابن عمرو بن العاص . فأمر الخليفة بإحضار الابن المعتدى . وقال له : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ وأمر المضروب أن يضرب ابن عمرو . قائلا له : اضرب ابن الأكرمين .

أو على هذا النحو :

"عجبت لرجل عنده أطفال يتضورون من الجوع ولا يخرج إلى الطريق شاهراً سيفه ضد كل من كان سببا فى ذلك"

بعد ذلك استطعنا أن نستعمل مكبرات الصوت فى بعض المآذن لعمل دعاية . لماذا نعيش هنا فى معسكرات اللاجئين ؟ لماذا نعيش هنا مع الفلاحين فى الحقول ؟ ليس فقط لأهداف غوغائية بين الدهماء . أو لكى نكسب أعضاء جدداً لقضيتنا . لقد بدأنا من منطلق أننا نعرف القليل . من الجماهير . ومن الجماهير فقط يمكن أن نتعلم ما نحتاجه من أجل الثورة . بدءاً من كيف ننظم

أنفسنا وحتى كيف نعمل ونتحرك . إن الشعب . كما يقول أحد أناشيدنا . هو مخترع كل شيء. من العجلة حتى الأهرام . ومن المؤكد أنه سيخترع أيضا ثورتنا . يكفى أن نساعده كى يصبح واعيا بقوته الخارقة .

فـــــرنكا : وأنت ماذا كنت تعمل ؟ فلاحًا أو راعيا أو عاملا ؟

صوت خارجى (٥) : لا . أنا لا ! أنا كنت أعمل لصا .

فـــــرنكا : لصا ؟

صـــوت (٥) : نعم . لصا . كنت أعمل لصا . كنت أمارس مهنة اللصوصية . حينما كنت أذهب للعمل أدركت على الفور . وحتى دون أن أقرأ كتبا . أن صاحب العمل يسرقنى . فإذا كان العالم مكونا من سارقين ومسروقين . فأنا أفضل أن أكون من ضرب السارقين . اللصوص . كنت أعيش حياة المهرجانات الأغنياء . وكنت أشعر بالملل من حياة الأغنياء . فبدأت – قضاءً للوقت – أتردد على العاهرات وأشرب وأتعاطى المخدرات . حتى أنصرف عن التفكير فى الوقت .

فـــــرنكا : ولكن مثل هذه الحياة تحتاج إلى أموال طائلة .

صـــوت (٥) : وهل تظنين أننى كنت أسرق الدجاج ؟

كنت لصا محترفًا . كنت أميا ولكننى كنت محترفًا . كان فقدى لإحدى عينى هو الذى جعلنى أغير رأيى . كنت فى الجليل فى فلسطين. وجاء الإسرائيليون بقواتهم وعتادهم وعاثوا فى المدينة فسادًا . فكانوا يطلقون المدافع على

البيوت . وقد انفجرت قنبلة بالقرب منى على بعد عدة أمتار وأصابتنى منها شظية شطرت عينى إلى شطرين . كما تقسم البيضة المسلوقة.

أيها الإسرائيليون ؟ ما ذنبى أنا ؟ هذه العين العوراء يجب أن تعوضونى عنها . ألا تقولون " العين بالعين " !

وعلى الفور طبقت القول على العمل . وما إن خرجت من المستشفى حتى انضممت إلى أول منظمة قابلتنى . كان اسمها " التضحية الوطنية " كان الاسم له رنين ووقع جميل .

بالإضافة إلى كونى جاهلا وأميا . فلم أكن أفهم شيئا فى السياسة . وهكذا صنفونى ضمن البلهاء . على المستوى التنظيمى . أدركت على الفور أن هناك أخطاء كثيرة . وفى اليوم الثالث . عينونى مسئولا عن الخزانة . وإذا كان أمين الخزانة لصا . فلكم أن تتصوروا ما يمكن أن يكون عليه المسئول السياسى والعسكرى . كانوا جميعا يشربون بإسراف طول النهار . ويتعاطون المخدرات . بحيث كنت أنا بالنسبة لهم شخصا عاقلا . يبدو أن نضال التحرر يسير على هذا النحو .

كنا فى أحد المعسكرات . حينما قامت فرقة من الشرطة بالقبض علىّ . نقلونى إلى حجرة كبيرة وبدءوا على الفور فى ضربى . وطيروا لى عينى . عينى الزجاجية طبعا وبدأ التحقيق :

– من أعطاك هذا المسدس ؟

– القائد .

– هل تعرف أنه مسدس إسرائيلى . اقرأ المكتوب عليه .

وصية امرأة : – أنا لا أعرف القراءة .

(فتلقيت لطمة)

– لا تتظاهر بالغباء .

– أنا لا أتظاهر بالغباء . فأنا لم أذهب إلى المدرسة فى حياتى .

– ولكنك تعرف أن القميص الذى ترتديه أمريكى . تعرف ذلك ؟

– طبعا . قميص أمريكى . وبنطلون إنجليزى . وحذاء إيرانى . وسراويل فرنسية . أنا عالمى .

(وتلقيت بعض الراكلات)

– هل تعرف أن خيمة قيادتك يتردد عليها دائما مستشارون أمريكيون . إسرائيليون ؟

– ليس صحيحا ! هذه شائعات يروجها الروس . أنا قيادتى مكونة من أبناء زنا . لكنهم وطنيون .

(وهنا تلقيت ركلات أخرى)

بعد ذلك أدركوا أنى فقير متخلف جاهل بكل شىء وأبقونى فى الحجز حوالى شهرين . ثم أطلقوا سراحى . لم أعد إلى قاعدتى . لم أعد أريد أن أعرف شيئا عن أولاد الزنا هؤلاء . لكنهم بحثوا عنى . فقد كانوا يخشون

أن أكون قد نقلت لهم بعض الأخبار . فأخذونى إلى خيمة وضربونى هم أيضا ثم بدءوا التحقيق معى .

– تكلم . مـاذا قلت لهم ؟ هل أفـشـيت شـيـئـا ؟ هل أخبرتهم عن المستشارين الذين يجيئون هنا ؟

– آه . إذن كان حقا ؟

يا أبناء الزنا . أيهـا الخنازير الأقـذار . (**ثم أخـرجت خنجرى**) .

– سأمزقكم إربًا إربًا . اخرجوا ! وأحذركم لو مسستم شعرة من رأسى فستكون نهايتكم .

لم يمـسـوا شـعـرة من رأسـى . وكـفـفت عن السـرقـة . وعملت فى التجارة . تجارة الطماطم . كنت أتجول بعربة طماطم فى المدينة . فى بعض الأحيان . كنت فى المساء . ألتـقـى بفـتى صـغـيـر طالب وعـامـل كـان يناقـشنى فى السـيـاسـة . مـات الآن . وذات يوم حـدث تبـادل لإطلاق النيران. كان اليـهود يتعقبون بعض الفدائيين فى أحد الأحياء . فألقوا قنبلة يدوية فوق عربتى . عربة الطماطم . يا للمـصيبة ! لقد انتشرت الطماطم على أرض الطريق بعد أن تحولت إلى عـصيـر . وهنا صـحت فـيـهم قـائلا : "كفى ! لقد سلبتمونى فيما مضى عينى . والآن الطماطم. هذه المرة سـأصبح فدائيـا حـقا . وكنت قـد شـاركت فى المصـادمـات التى وقـعت بين الأعداء وبين الفـدائيـين . حـملت بندقـيـتى دون أن أنضم إلى أى منظمـة من

المنظمـات . صـديقى الطالب العـامل . حينمـا حدثتـه عن رغبتى فى الانضمام إلى المقاومة شجعنى قائلا : فهناك سيعلمونك القراءة والكتابة وسيغيرون حياتك تماما .

وهكذا انضـممت إلى الفـدائيـين . طلبـوا منى أن أقص عليهم حياتى كلها . دون أن أخفى شيئا . وبكل صراحة . فقصصت عليهم كل شىء . بالضبط كما أفعل الآن . قلت لهم أننى كنت مـدمنا . وكنت لصـا . توقـعت أن يعطونى السلاح فورا . أعطونى زوجا من الأحذية المطاطية وفانلة وشورت مما يرتديه لاعبو كرة القدم . ثم ذهبـوا بى إلى المعسكر لكى أجرى وأقفز وألعب رياضـة مع غيرى من الأولاد وهم يقولون لى :

" أخرج كل هذه السموم التى تحملها فى دمائك "

ثم أجلسونا جميعا فى دائرة . وراح القادة يحدثوننا عن نضـال الفقـراء . وعن وضـعنا . وتحـدثنا نحن أيضـا . يسـألوننا ونناقـشـهم وندلى بآرائنا فـيـهم وهـم يبـادلوننا الآراء ؟ باختصار. جلسة من النقد الذاتى. أنا أحب النقد الذاتى كثيرا. وخاصة حينما يكون من الآخرين لأنفسهم. حـاولوا عـلاجى من إدمـان الحـشـيش . فكانوا يعطوننى أقـراصـا لا أشـعـر بعـدهـا بالرغبـة فى التـدخين . وكانوا يحدثوننى كثيرا عن الأخطار المدمرة للمخدرات . لقد أقلعت عنها جميعا . ولم أعد أدخن سوى السيجارة . وأنا دائمـا أسـعل بسـبـبـهـا . تعلمت القـراءة والكتـابة .

وكان أول كتاب قرأته بعنوان " الأم " لمكسيم جورجى ؟ ما أجمله من كتاب ! تكونت عندى رغبة شديدة فى القراءة .؟ وأصبحت أقرأ فى كل مكان ؟ فى المعسكر ؟ فى المطعم ؟ فى الحمام ؟ كم يروق لى أن أقرأ فى دورة المياه ؟ وأستطيع القول بأن معظم ثقافتى قرأتها فى دورة المياه . وكنت أتردد دائما على الدروس التى كانت تعقد كل يوم . كانوا يدرسون لنا تاريخ بلادنا منذ أقدم العصور . ثم يأتى دور المناقشات . وحينما كنت أفكر فى الفترة التى كنت فيها لصا أو أدمن المخدرات . كنت لا أصدق أننى مررت بمثل تلك الفترة . بعد ذلك . التحقت بدورة التدريب العسكرى . ثم بدأنا نتدرب على العمليات الحربية . كم عملية قمت بها ؟ عمليا كثيرة بحيث لا أستطيع حصرها . وكم من المرات كدت ألقى فيها الموت . ولم أكن أبالى بالموت بل كان يطيب لى أن ألقى حتفى . وأتمنى أن أعيش فقط لأقوم بعمليات أخرى وتنتصر الثورة . صحيح أننا قد لا نحقق ذلك فى القريب العاجل . ولكن المهم أننا بدأنا . وأنا واثق بأننا بدأنا بداية طيبة . كل يوم أتحدث مع زملائى . من الفقراء فى المعسكرات . وفى كل يوم نزداد اقتناعا بأننا على الطريق الصحيح . فى كل يوم ينظرون إلينا بود أكثر ويشدون على أيدينا . رجالا ونساءً وأطفالاً .

سألنى أحدهم فى أثناء إعداد هذا العرض . كيف نروى قصص كفاح الشعب الفلسطينى . ولا نروى شيئا من قصص كفاح النساء . نساء فلسطين .

ذات مساء وبينما نحن فى الخيمة داخل المعسكر . كان هناك أكثر من امرأة . كان بعضهن بصحبة أطفالهن ومنهم الرضع الذين يحملنهم فوق أذرعهن . وكان منهن الصغيرات فى السن . وكن ينشدن الأناشيد . وسألت إذا كان من الممكن أن تأتى إحداهن لتشارك فى العرض. فأجابونى قائلين :

– " هذا مستحيل . فالفتيات مشغولات هذه الفترة بعمل عظيم . فبالإضافة إلى الجانب التنظيمى . هناك مشكلة من الصعب شرحها . "

– " لعلك تقصد مشكلة تحرر المرأة . "

– " هذا أيضا جانب من القضية . فتحرير المرأة بالنسبة لنا يمثل العقبة الكبرى التى لابد من التغلب عليها .

كانت هناك امرأة تحمل طفلها على صدرها وكان يبدو عليها التعب والإرهاق . وحين سألتها أن تروى لى شيئا عن حياتها . أشارت لى بالنفى . وأنها لا تستطيع أن تخبرنى بشىء .

وحينما عدت إلى ميلانو . بعد فترة . أعطانى صديق من بيروت شريطا كان مسجلا بصوت المرأة التى قابلتها فى المعسكر . إليكم التسجيل :

" أنا الرفيقة التى لم تجبك على طلبك حينما سألتها فى المعسكر أن تروى لك شيئا عن حياتها . الآن أستطيع أن أحدثك عن نفسى. أنا أصلا بدوية. أمى عاشت سنين طويلة فى الخيام مثل جميع البدو الرحل الذين يتنقلون هنا وهناك فى وادى الأردن. وقد أحبت رجلا يعمل فلاحا وتزوجا . وهكذا ولدت أنا فى بيت مبنى من الحجارة . لم أكن أحب عمل الفلاحين. وكيف أحبه ؟ وهل عمل شاق يكون فيه الإنسان أشبه بالبهائم التى لا نقدم لها حتى ما يشبع جوعها ولا يروى ظمأها . ولا تجد فرصة كافية للراحة أو للنوم. والنسوة منا كنّ دائما فى المستوى الأدنى من السلم الاجتماعى: دائما منحنيات على العمل فى الحقول يجمعن الحشائش ويحصدن المحصول . منحنيات على الآبار لاستخراج الماء. منحنيات على غسل الملابس والصحون ومنحنيات على طحين الدقيق وعجن العجين وخبز الخبز. منحنيات دائما حتى أمام أزواجهن. وكذلك على الأطفال لإرضاعهم وتعهدهم فى طفولتهم الأولى .

أمى التى كانت منذ فترة شابة جميلة قوية . أصبحت الآن فى حالة يرثى لها من الضعف. أما جمالها الأول فلم يبقى منه أثر . ويحدث من آن لآخر أن تعود بها ذاكرتها إلى الماضى حينما كانت تعيش فى الخيام فى الصحراء . حيث الرجال يعاملون النساء كما لو كنّ ملكاتٍ متوجات .

فلا يعرضوهن للتعب ولا يكلفوهن رفع الأحمال الثقيلة . كانت أمى كغيرها من النساء فى البادية؛ دائما تسافر وتتنقل فوق صهوة الجياد. والرجال دائما فى المقدمة لحماية النساء اللاتى كن يرتدين الناعم من الثياب . كانت مهمتنا نحن النساء هى إجادة الغناء والرقص والحديث فى شتى الموضوعات الممتعة. كنت ما أزال صغيرة ولكننى كنت أجيد ركوب الخيل . أفضل من أى رجل بدوى . كنت أرتدى الحجاب الخاص بقبيلة أمى . وكنت أذهب إلى المدرسة فى بلدة قريبة . وكنت أحب المدرسة . وكنت متقدمة فى الدراسة . وظللت فى المدرسة حتى الفرقة السادسة. وكنت أبغض العمل فى الحقول. وأحاول بشتى الطرق أن أهرب من هذه الحياة وأتجنب هذا المصير. لكن القدر شاء لى أن أتزوج فلاحا يملك قطعة من الأرض. لكنه فلاح . كنت فى السادسة عشرة من عمرى. وفى يوم من الأيام كان هناك حفل كبير فى الميدان العام جاءه فرسان من بلدان أخرى. جاءوا يستعرضون فنونهم. كان أحدهم فى زى أسود . يرقص واقفا فوق صهوة جواده . ويطلق الأعيرة النارية هنا وهناك . من بندقيته التى كانت من الفضة الخالصة. فقلت فى نفسى. هذا هو الرجل الذى يروقنى. وبالفعل تزوجته . ولن أقص عليك المحاولات التى بذلت من أجل أن يرانى ومغازلاته ومحاولاته للتقرب منى وطلب يدى. كان جميلا بحق. قويا .

أما فيما يختص بالثقافة . فكانت الطامة الكبرى . كان لا يهتم بشىء إلا ببندقيته الفضية وجواده . والتمرينات التى يؤديها فوق الجواد . تزوجنا فى بلده . وقد وصلتها فوق جوادى الذى أهدانى إياه عوضا عن دبلة الخطوبة . كان جواد خطبتى . واستقبلنى أفراد قبيلته بكل الفرحة والترحاب. ثم أقيم حفل الزواج الذى بدأ بالرقص. وكنت أحبه كثيرا . ثم جاء دور لعبة الدعس . حيث ينبغى على الزوج أن ينجح فى دعس قدم الزوجة ليفرض سلطته. سلطة الذكر. كانت لعبة. على الأقل هكذا كنت أتصورها. لكننى لاحظت أن زوجى يوليها اهتماما كبيرا . وكان القلق الشديد يبدو فى عيون أهله وأصدقائه . كنت كما تقضى العادة أحاول أن أتهرب منه وأتجنبه . غير أنه دفعنى دفعة قوية ؟ وهوب ! دعس قدمى . فما كان منى إلا أن دعست قدمه بدورى . فانفجر جموع المدعوين فى الضحك باستثناء أفراد أسرته الذين لم يضحكوا . فقلت فى نفسى: "لعلهم لا يحبون المرح" ولم أعط الأمر أهمية . وكنت قد سمعت من أمى أنه. فى كثير من البلدان. جرت العادة على أن الزوج فى أول ليلة للزواج . وقبل الجماع . يضرب الزوجة لكى يستقر عندها أنه – أى الذكر – هو السيد. وأن هذه هى المعاملة التى تنتظرها إذا ما ارتكبت خطأ . لم أفكر أن تكون تلك العادة سارية أيضا فى بلد زوجى. المهم. حينما كنا نهم بدخول غرفة النوم. لاحظت

أنه مشغول قليلا . وحينما صرنا وحدنا . قال لى: "اسمعى. الآن يجب أن أضربك، ولكن لا تخافى. فلن أقسو فى ضربى؛ المهم أن تبكى وتصرخى حتى يسمعك الجميع فى الخارج. فصحت فيه قائلة: "ماذا؟ هل أنت مجنون؟ حاول أن تمسنى وسأحطم هذا الوعاء فوق رأسك " .

فأجاب : " حاولى أن تفهمى . هذه عادة . من الواجب أن أضربك . هذه قضية كرامة بالنسبة لى . "

فما كان منى إلا أن قلت له : " أية كرامة ! أنتم جميعا متخلفون . لو مسستنى بيدك . سأقتلك ."

وبالفعل رفعت الوعاء استعدادا لضربه . فوق رأسه "

وهنا انفجر باكيا. وقال " لا تضعينى فى مثل هذا الموقف الحرج . أرجوك . أتوسل إليك . اصرخى قليلا . وابك وأنا سأضرب المرتبة . هكذا ! " فقلت له : " لا تضرب المرتبة . بل أضربك أنا وتبكى أنت. هيا. عاليا. أصرخ !

وبينما كنت أقول ذلك نفضت ملاءة السرير . فرأيت منديلا كبيرا من القطن . كأنه مفرش صغير . فسألته :

– ما هذا ؟

– هذا لزوم العرض .

– أى عرض ؟

– صباح غد . هذا المنديل يجب نشره فى النافذة . وبه بقعة من دمك ؛ برهانا نقدمه لكل من فى البلد على أنك كنت عذراء فعلا .

وعندها لم أملك نفسى . فرفعت الطست النحاس وضربته فوق رأسه . فصاح وسال الدم من رأسه . فقذفته بالمنديل الكبير قائلة : " انتهز هذه الفرصة وخضبه بدم رأسك . رأس التيس الكبير البكر .

عندئذ دخلت علينا أمه . وهى امرأة قصيرة وسمينة . لم أرها تضحك مرة منذ جئت إلى هذا البلد . فقالت له :

– ماذا تنتظر لضربها ؟

– لا تريد .

– حسنا . سأرسل إليك إخوانك ليضربوك حتى يقتلوك أو يطردوك . فهذا البيت لا يبقى فيه إلا رجال يثبتون كرامتهم ويبرهنون على رجولتهم .

فما كان من زوجى إلا أن قفز فوقى وهو يصيح كالمجنون. وراح يضربنى ضربا مبرحًا حتى كاد يقتلنى . ولم أتمكن حتى من إطلاق الصراخ. عندئذ ابتسمت أمه ، ولأول مرة ، سعيدة فرحة .

كاد الملعون أن يقتلنى . المهم . أنه فيما بعد . وحينما حاول الاقتراب منى ليداعبنى . انتهزت الفرصة وركلته فى بطنه . أسفل قليلا . فانفجر صائحا أشبه بكلب يخصونه . ثم جعل يتقيأ . وفى جوف الليل نزلت إلى الحظيرة . وأسرجت جوادى . وانطلقت أعدو حاملة بندقية زوجى الفضية . وعند الفجر . توقفت فوق تل صغير . وشاهدت أسفله بعض الرجال يمتطون صهوة

الجياد . فإذا بهم أفراد أسرة زوجي جاءوا يطلبونني . فاتخذت لي موقعا يمكِّنني منهم وصوبت بندقيتي . وأطلقت عليهم النار وتمكنت من إصابة أحد الجياد في صدره . فسقط فوق الأرض ومعه فارسه . لم أقتله . ولكن جرحته فقط. فتوقفوا ثم استداروا وعادوا أدراجهم. فهؤلاء المتخلفون جيادهم أهم عندهم من امرأة هاربة .

بعد ذلك . عدت إلى المدينة وعملت مساعدة ممرضة في إحدى المستشفيات. في البداية عملت في غسل الصحون. وكان الناس الذين علموا بخبر هروبي ينظرون إليَّ كما ينظرون إلى امرأة عاهرة . أما في المستشفى . فقد تمسكوا بي فقط لأنه كان من الصعب عليهم الحصول على نسوة تعمل ليلا . كان بعض المرضى يرفضون أن أمسهم بيدي . ولكن هذا العمل مع ما فيه من تعب . كان يروقني . وبعد أربعة أعوام . صرت رئيسة جناح .

في أثناء حرب سيناء وانتصار إسرائيل النسبي . لم أكن موجودة في فلسطين . كنت في مصر . كنت هناك منذ ثلاثة أعوام . أرسلني المسئولون في المستشفى لكي أتخصص في الجراحة في مدينة الإسكندرية، وبعد نكسة سيناء . والأزمة التي مر بها ناصر . حدث نوع من العفو العام . فأطلقوا صراحي وعدت إلى بيتي ، أو بالأصح بالقرب من بيتي فيما وراء نهر الأردن . بعد ذلك انضممت إلى الجبهة الديمقراطية الشعبية التي كان لي

فيها أصدقاء . ومع كلٍّ فلم يكن من السهل البقاء فيها بالنسبة لنا نحن النساء . فقد كان عددنا لا يزيد على عشر وأشاع عنا بعض البرجوازيين أننا مجموعة من العاهرات التافهات. وكذلك الفقراء منهم كانوا لا يحسنون الظن بنا . فالمرأة الثورية بالنسبة للعقلية العربية تعد امرأة غير جديرة بالاحترام. لكننا لم نكن نقيم وزنا لذلك. كنا نقوم بعملنا فى المخيمات نعالج المرضى ونقوم بأعمال الدعاية . ثم كانت معركة عمان . اشتركنا فى المعركة . وقمنا بإطلاق النار نحن أيضا . وقلَّدنا الكثيرات من النساء . نزلن إلى الشوارع وجمعن السلاح من أيدى الذين سقطوا فى المعركة وبدأن يطلقن النار . ثم عدنا أدراجنا . فقد أمرنا القادة بألا نظهر حول المخيم بشعار الجبهة . كنا ندخل ونخرج فى تكتم شديد . سألونى عما إذا كنت مستعدة للاشتراك مع مجموعة فى عملية مسلحة بهدف " القصاص " من محمد حافظ أحد الخونة الذين يتعاونون مع العدو ويرشدون عن المناضلين . كان يبدو أنها عملية على جانب كبير من الأهمية . أرادوا بها أن يعلنوا أن المقاومة السرية قد بدأت . قبل ذلك بفترة قامت امرأة فى عمان بتفجير جناح فى الفندق الأمريكى الكبير فى عمان وكان به اثنان أو ثلاثة من المرشدين الخونة . وفى القاهرة . اقتص الثوار من مرشد آخر تسبب فى القبض على أحد القواد . وفيما يختص بموضوع حافظ .

كنت مـن حيـث المبدأ ضـد عمليات التصفية الجسدية . إلا أن قـادتي أقنعـوني بأن في مـثل هذه الظروف التي يخيم عليها اليأس . فإن عملية كهذه من الممكن أن تعطي دفعة كبيرة للمقاومة وللنضال بشكل عام وتكون درسا للمرشدين الخونة . كانت مهمتي تتلخص في عمل طعم للمرشد الخائن واستدراجه إلى منزل حيث يقوم أحد الرفاق بقتله . عملت ممرضة خاصة لسيدة عجوز مريضة من السـفـارة الفرنسـيـة ومـازلت أذكر الحـجـاب الأزرق الخاص بقبيلة أمي . فكنت أرتديه متظاهرة بأنني مسلمة متدينة . وكنت أتنقل دائما في المنطقة وأنا متشحة بهذا الحجاب وكنت دائما أمر أمام المنزل الذي كان يقيم فيه هـذا الخـائن . كان يخـرج دائما في حاشيـة من اثنين أو ثلاثة من العسكريين . وفي كل مرة كان يمر فيها بالقـرب مني . كنت أشـعـر بأني أمـوت خـوفـا . لكنني سرعان ما تمكنت من جذب انتباهه . وذات مساء . حاول الخائن مغازلتي. وردد على مسمعي عبارات غزل جريئة . فتوقفت . والتفت نحوه . وانهلت عليه بالسباب باللهجة الإسكندرانية . وبدأ غزل من نوع جديد . فكان يتبعني حتى البيت . ولكن كل خطوة من خطواته كانت محسوبة ومراقبة من رجال الشرطة السرية الإسرائيلية الذين كان يتبعونه وهم بدورهم كانوا مراقبين من قبل رفاقنا . وأخيرا . حل اليوم الموعود . وقبلت أن ألتقي به في بيته .

وفى البيت كان من المفروض أن يتواجد أحد رفاقنا ؛ ولكن حدث أن الشرطة الإسرائيلية . ودون أن يبلغوا الخائن بأى شىء حتى لا يفسدوا عليه مغامرته الغرامية . كانوا قابعين فى الشقة قبل أن نصل نحن . وقاموا بقتل رفيقى . وصلت أنا والخائن . وهم مشغولون بنقل جثمان رفيقى . واضطررت إلى تمثيل مشهد المذهولة المهووسة من هول ما شاهدت . ورحت أتحرك حركات عصبية وأصرخ صراخًا حادًا . وتلبَّست أزمة بكاء هستيرى مشيرة إلى أن الحجرات الأخرى لابد وأن بها أفراد شرطة آخرين متأهبين للتدخل والتخلص منى عند أول خطوة خاطئة . كنت أرتعد مما جعله يلاطفنى بل ويعانقنى. وقبلت أن يضاجعنى. لكننى فى البداية قمت بعمل سيناريو طويل لكى أجبره على طرد أى غريب يمكن أن يكون فى البيت . متعللة بأننى لا يمكن أن أنام معه وأنا أعرف بوجود أى شخص يتجسس علينا . فقام الخائن الذى كان مصمما على امتلاكى . بطرد جميع أفراد الشرطة المختبئين فى الشقة .

وأسلمت نفسى له . وكان علىَّ أن أنتظر طلوع الفجر لكى أقتله . فكان هو ينتهز الفرصة . كنت قد حملت معى مسدسا قمت بإخفائه فى الحمام. وحينما بدأ نور الفجر. نهضت من الفراش. وبحجة قضاء الحاجة. دخلت الحمام وأخذت المسدس وألقيت نظرة فى الحديقة . كان هناك شرطى ينام فوق دكة. فأخذت وسادة ووضعت فيها

المسدس. ثم عدت إلى الفراش الذى كان ينام فيه الخائن.
وأطلقت النار على رأسه . لم يتحرك كأننى أقدم له القهوة
" كم ملعقة من السكر ؟ " أربع طلقات . أربع طلقات
مكتومة . ثم نظرت من النافذة إلى الحديقة لأرى إذا كان
الشرطى قد سمع شيئا . فوجدته ما يزال نائما .

وخرجت رابطة الجأش . اخترقت المدينة كلها سائرة على الأقدام . كانت الشرطة الإسرائيلية كلها تجوب المدينة بحثا عن امرأة بحجاب أزرق مثل المسلمات المتحجبات . بعد يومين قبضوا على امرأتين وصفتهما الصحف بأنهما "القاتلتين". وفى الحقيقة. أن هاتين المرأتين قامتا بالإبلاغ عن نفسيهما. وفى الشرطة قاموا باستجوابهما . وتبين أنهما كاذبتان . فقاموا بضربهما حتى سالت منهما الدماء . وطردوهما شر طردة . وعقَّب رئيس الشرطة قائلا: "المرأتان كلتاهما المصابتان بجنون الكذب" ولكن بعد عدة أيام . وصلت إلى الشرطة الإسرائيلية رسائل أخرى من نساء يعترفن فيها بأنهن اللائى قمن بعملية القصاص من الخائن "حافظ " وخلال شهر . كانت قد غطت مئات رسائل الاعتراف مكتب رئيس الشرطة . كانت نساء الشعب العربى بهذا العمل يردن التعاطف معى . ويعلنَّ على الملأ أنهن مستعدات لأى تضحية . أنهن متضامنات معنا . مهما كلفهن ذلك متضامنات مع الثورة . ثورتنا .

* * *

(مسئول فلسطينى ؟ صحفية أجنبية (فرنكا)

حينما ذهبت إلى بيروت . زرت أحد المسئولين الفلسطينيين . فكان هذا اللقاء.

فرنكا : كيف تعيشون الآن وقد طردوكم من المصانع التى تعملون فيها؟

فرنكا : ٣٠٠ ألف فلسطينى طردوا من أعمالهم . والباقون لا يتمكنون من الوصول إلى محلاتهم التى يعملون فيها . أكرر سؤالى : كيف تعيشون أنتم وأسركم ؟

المسئول : نحن نحاول أن نستقل عن هذا المجتمع الإسرائيلى الذى يرفضنا . نحاول أن نرفضه كما يرفضنا .

فرنكا : هم الطرف الأقوى . يستطيعون أن يستخدموا عمالا آخرين يجلبونهم من أى بلد آخر . أما أنتم . فهل يسمحون لكم بالانتقال للعمل فى أى بلد آخر ؟

المسئول : طبعا لا يسمحون لنا بذلك . وحتى إذا سمحوا بذلك . فنحن لا نريد أن نخرج من أرضنا .

فرنكا : كيف تحصلون على الطعام والشراب. وضروريات الحياة؟ كما كان يفعل آباؤنا وأجدادنا قبل الاستعمار : نزرع الأرض ونحفر الآبار .

فرنكا : **Fantastique** ! وهل تطيقون مثل هذه الحياة البدائية ؟

المسئول : وهل أمامنا خيار آخر ؟ كما نواجه أسلحتهم المتطورة بالحجارة . نواجه مدنيتهم بوسائلنا البدائية .

فرنكا : **Fantastique** ! مثل مهاتما غاندى ؟

المسـئـول : كل شعب له ظروفه الخاصة ووسائله النوعية لمواجهة المستعمر . يكفى أن ينظر حوله ليكتشف هذه الوسائل .

فـرنكا : Fantastique ! لكنهم يحرقون المزارع . ويحرمونكم من الماء .

المسـئـول : نزرع غيرها . نزرع كل شبر من أرضنا . ونرويها بالعلب البلاستيك .

فـرنكا : Fantastique ! أنا أحب هذا ! زراعة المقاومة .

المسـئـول : بالضبط ! زراعة المقاومة .

فـرنكا : جد والدى كان فلاحًا يعيش فى الريف . كنا نذهب لزيارته ونركب الحمير.

المسـئـول : نحن نركب الحمير ونتنقل بها بين القرى . بعد أن فصل الإسرائيليون القرى عن بعضها . هناك طرق نسلكها لا يعرفها الإسرائيليون .

فـرنكا : Fantastique ! أنا أحب هذا .

المسـئـول : ما رأيك لو دعوناك لقضاء يوم معنا ترين فيه كيف نعيش؟

فـرنكا : على الطبيعة !

المسـئـول : نعم . على الطبيعة .

فـرنكا : ليس عندى مانع على أن أعود قبل الظهر ؛ لأن عندى موعداً آخر لمقابلة أخرى .

المسـئـول : إذن . هيا بنا !

إظـلام

{ المسئول الفلسطينى وفرنكا يجلسان على الأرض أمام الطعام امرأة فلسطينية ترفع ما بقى من الطعام }

المسئول : أنت لم تأكلى شيئا . طعامنا لم يعجبك إذن ؟

فرنكا : بالعكس . لقد أكلت كما لم آكل فى حياتى . طعامكم جميل جدا . لذيذ جدا .

المسئول : هذا هو الطعام الذى نعيش عليه. وكله من إنتاج الأرض. أرضنا .

فرنكا : أنا أريد أن أسجل كل ما أكلته من إنتاج أرضكم .

[تمسك قلما ودفترًا وتكتب]

أولا . أنا شربت لبنًا طازجًا لذيذًا . هذا من إنتاجكم أيضا ؟

المسئول : نعم . فنحن نربى الأغنام فى مزرعة خلف الدار . تمدنا باللحوم واللبن وتعطينا أيضا سمادًا للأرض .

فرنكا : ثم أكلت مجموعة من الخضراوات الطازجة اللذيذة طبعا . كلها من إنتاج الأرض **[تسجل ما تقول]**

المسئول : والفاكهة أيضا من إنتاجها .

فرنكا : نعم . أكلت ثلاثة أنواع من الفاكهة اللذيذة . البطيخ كان رائعا !

المسئول : هل تعرفين قصة هذا البطيخ ؟ نحن لا نزرعه للأكل فقط ولكنه سلاح من أسلحة المقاومة .

فرنكا : تضربون به الجنود الإسرائيليين مثل الحجارة ؟

المسـئـول : لا . هذا البطيخ نستفز به الجنود . حينما نشق البطيخة الحمراء نصفين ونرفعها . تبدو كأنها العلم الفلسطينى .

[تسمع أصوات صفير آتية من أعلى الدار]

هذا الصفير أيضا سلاح آخر من أسلحة المقاومة .

فـرنكا : الصفير ؟

المسـئـول : هذا صفير الأطفال الذين كانوا يأكلون معنا . ثم صعدوا إلى السطح . إنهم يتدربون على الصفير الذى يستخدمونه كإشارات ومعلومات يبلغونها لأطفال الحجارة حينما تداهمهم الشرطة .

فـرنكا : يعنى وسيلة إنذار مبكر ؟

المسـئـول : بالضبط . وسيلة إنذار مبكر .

فـرنكا : ومكبرات الصوت هذه ؟ **[يسمع بعض مكبرات الصوت]**

المسـئـول : هذه نستعملها فى إذاعة بعض البيانات المهمة . كما نستعملها فى إذاعة الأغانى الشعبية والوطنية التى نستفز بها الجنود فيفقدون أعصابهم عند سماعها . وهذه الإطارات ...

فـرنكا : نعم. هذه الإطارات أعرفها. أشاهدها دائما فى التلفزيون وهى مشتعلة ؟

المسـئـول : كل هذه وسائل احتجاج . كما نستعملها أيضا فى تعطيل تقدم الجنود حينما يهاجمون قرانا .

إظـلام

فـرنكا : وفى قسم الشرطة ؟ أكمل يا محمد . ماذا حدث معك ؟

{ فى قسم الشرطة – ضابط – طفل – جندى }

[الضابط يسأل والطفل لا يجيب]

الضـــابط : من أعطاك هذه المنشورات ؟ لا تتكلم ؟

الـطـفـل : ...

الضـــابط : ألا تريد أن تعود إلى بيتك وأهلك ؟

الـطـفـل : ...

الضـــابط : أخبرنى وأنا أتركك تعود إلى أهلك .

الـطـفـل : ...

الضـــابط : لا تتكلم ؟

الـطـفـل : ...

الضـــابط : وماذا كنت تفعل فى الغابة فى أثناء الليل ؟

الـطـفـل : ...

الضـــابط : شاهدك بعض المستوطنين وأنت تدخل الغابة ومعك إطار سيارة . ثم خرجت من الغابة . وبعد قليل اشتعلت النيران فى الغابة . مذنب أم غير مذنب ؟

الـطـفـل : ...

الضـــابط : خذوه ! **[يشير إلى أحد الجنود]**
الغابات التى أمضينا عشرات السنين فى زراعتها يحرقونها فى لحظات .

إظـلام

فـــــرنكا : والآن يا محمد . احك لنا حكاية الكاتب الإسرائيلى أ.ب. يهوشع .
اقرأ لنا يا محمد ما كتبه فى صحيفة "يديعوت أحرونوت"

مـحـمـد : أيها المستوطنون الإسرائيليون فى غزة والضفة الغربية !
لماذا أصررتم على الانتقال من المدن التى كنتم تعيشون فيها فى أمان واطمئنان ؟ **(الجليل والنقب لا تناسبكم ؟)**
لماذا العناد الذى جعلكم تتركون بيوتكم الأصلية فى إسرائيل وتزرعون أنفسكم وسط السكان الفلسطينيين ؟
لماذا تصميمكم على مصادرة أراضيهم واقتلاع أشجارهم. وهدم بيوتكم . لتقيموا مكانها مستعمراتكم ؟
لماذا هذا التحدى المدمر الذى جعلكم تلقون بأنفسكم إلى التهلكة . وسط الفدائيين الفلسطينيين الذين يواجهون الموت بصدور مفتوحة . بل ورغبة فى الموت . أو بمعنى أصح فى الشهادة . دفاعا عن أرواحهم . وأعراضهم . ومقدساتهم . ورغبة فى إسقاط أكبر عدد ممكن منكم . لأنكم تمثلون بالنسبة لهم الظلم والقهر والاغتصاب ؟
أنا أجيب عن هذه الأسئلة بدلا منكم .
لقد استمعتم بكل بلاهة إلى صيحات المتطرفين المجانين.
لقد استجبتم بكل سذاجة إلى فتاوى الحاخامات المهووسين .

فـــــرنكا : وفى قسم الشرطة . ماذا حدث مع الكاتب الإسرائيلى يا محمد ؟

{ فى قسم الشرطة – الضابط – الكاتب الإسرائيلى يهوشع }

الضابط : هذا كلامك يا أستاذ يهوشع الذى نشرته فى صحيفة يديعوت أحرونوت يوم الأحد الماضى ؟

يهوشع : نعم .

الضابط : أنت معترف إذن ؟

يهوشع : نعم معترف .

الضابط : هل يليق بكاتب إسرائيلى أن يقول مثل هذا الكلام .

يهوشع : أولا أنا أقول الحقيقة . ثانيا نحن من المفروض فى دولة ديمقراطية تحمى حرية التعبير .

الضابط : ولكن الظروف التى تمر بها إسرائيل تحتم أن نقف جميعا صفا واحداً ضد أعدائنا .

يهوشع : هل تريدنى أن أكذب على المواطنين ؟ أن أضللهم ؟

الضابط : لا تكذب ولا تضلل . ولكن ؟

يهوشع : ولكن ماذا ؟ أجامل وأجمل ، المستوطنون يعرفون الحقيقة أكثر منى ومنك لأنهم يعيشونها . هم يحتاجون فقط لمن يبصرهم بخطورة هذه الحقيقة . لمن يعيد إليهم عقولهم قبل أن يفوت الأوان .

الضابط : ألا ترى فى ذلك إثارة للمستوطنين ضد المسئولين ؟

يهوشع : بل هو تحذير لهم من مواطن يحبهم ويرجو لهم العيش فى أمان وسلام . هل تعرف يا سيدى كيف يعيش المستوطنون الآن ؟ هل هذه هى الحياة التى كانوا

يتمنونها حينما جاءوا إلى هذه البلاد ؟ لماذا نقلتموهم من المدن التى كانوا يعيشون فيها فى سلام ؟ لماذا ألقيتم بهم وسط الفلسطينيين ليهدموا منازلهم ويقيموا مكانها مستوطنات لهم . مستوطنات لا يسكنها أحد . لاف المساكن خالية . هل ضاقت بهم المدن التى كانوا يعيشون فيها ؟

الضـــابط : هذه سياسة أمنية تقوم بها الدولة .

يهـــوشع : سياسة أمنية تزرع الإسرائيليين داخل الجسد الفلسطينى . الجسد الملتهب الذى يرفضهم .

الضـــابط : هذه سياسة الأمر الواقع .

يهـــوشع : يا سيدى . أنتم تسبحون ضد التيار . ضد العقل . ضد المنطق . ضد حركة التاريخ .

الضـــابط : حركة التاريخ ؟

يهـــوشع : نعم حركة التاريخ التى لم يستطيع أن يوقفها من هم أشد منكم قوة .

الضـــابط : عم تتحدث يا أستاذ ؟

يهـــوشع : أتحدث عن حركة التاريخ التى تقول : لن تستطيع قوة واحدة فى التاريخ أن تستمر إلى مالا نهاية فى قهر شعب من الشعوب .

الضـــابط : نحن نستطيع هذا .

يهـــوشع : أنت واهم يا سيدى . إن أصحاب الأرض يتمكنون دائما فى النهاية من تحرير أرضهم وإخراج الغاصب .

الضـــــابط : أنت متشائم يا أستاذ . أنت كاتب متشائم .

يهــــوشـع : بل أنا واقعى . أنا أستطيع أن أذكر لك عشرات الأمثلة من التاريخ . ولماذا أذهب بعيدا : فرعون . هل تذكر فرعون ؟ الذى كان يذبح أبناءكم . الذى كان يتحدى الأنبياء ويتحدى الإله . ماذا كان مصيره ؟

الضـــــابط : كان عدونا فانتصرنا عليه وتحررنا منه . لأننا شعب الله المختار . الله ينصرنا دائما .

يهــــوشـع : حينما نكون على حق . كنا أصحاب حق . وكان فرعون على باطل . يعاكس حركة التاريخ . فغرق فى البحر وهلك هو وجنوده . وأنا لا أريد الهـــلاك لكم ولجنودكم من المستوطنين .

الضـــــابط : قلت لك إنك متشائم . وكلامك هذا ينشر الفزع والرعب بين المستوطنين .

يهــــوشـع : المستوطنون يعيشون فعلا فى فزع ورعب . ليس بسبب كلامى . ولكن بسبــب سياســة التعنــت والاستفـزاز التى تمارســونها ضـد الفلسطينيين . المستوطنون الآن لا يخرجون من المستوطنات .

الضـــــابط : ولماذا لا يخرجون وعندهم كل أسباب الحياة ؟

يهــــوشـع : بل قـل كل أسباب المـوت . وبيوتهـم فى الحقيقة ما هى إلا زنزانات أو مقابر فاخرة . حتى النوافذ يخافون أن ينظروا منها . فالستائر دائما مسدلة حتى لا يراهم الفلسطينيون .

الضـــابط : لا تبالغ يا أستاذ . هم يخرجون ، وأبناؤهم يذهبون إلى المدارس .

يهـــوشع : يذهبون إلى الزنزانات المغلقة . هل تعرف فى أى حالة من الفزع يقطعون رحلة الذهاب والعودة . إذا تعطل المرور لأى سبب أو حدث أى شىء غير طبيعى . تراهم ينبطحون على أرض الحافلة تحسبا للخطر . حينما تضطر حافلة المستوطنين للمرور بجوار مخيم " عاناتا " تسرع بجنون لتتحاشى الحجارة والصدام مع الفلسطينيين . هل هذه هى الحياة التى تركوا من أجلها المدن التى كانوا يعيشون فيها ؟

الضـــابط : ماذا تريد يا أستاذ ؟ هذه مرحلة انتقالية . ثم نحن نعيش وسط أعداء شرسين .

يهـــوشع : نحن الذين جعلناهم أعداء . وجعلناهم بهذه الشراسة . إن المستقبل المظلم جعل المستوطنين لا يفكرون فى إنجاب أطفال . وأهملوا كل إصلاحات فى بيوتهم . وتوقفوا عن الزراعة . فلمن يصلحون ؟ ولمن يزرعون ؟

الضـــابط : وموضوع الكاتب المسرحى داريوفو ؟

يهـــوشع : هذا صديق إيطالى قديم . التقينا فى إيطاليا كثيرا . وحضرنا معا الكثير من الندوات والمؤتمرات .

الضـــابط : هل هذا مبرر لكى تتعاون معه فى تنظيم عرض مسرحى عن الفدائيين ؟

يهـــوشع : أنا لم أتعاون معه . كل ما هناك أننا التقينا مرتين .

الضـــابط : واستقبلته فى بيتك . وأنت تعرف أنه يلتقى بالفدائيين . ويجتمع بهم ويزورهم فى معسكرات التدريب .

يهـــوشـع : هذا عمل فنى ؟

الضـــابط : وسياسى . كيف تتعاون مع هذا الكاتب الشيوعى الذى يعلن عداءه لإسرائيل وللسامية ؟

يهـــوشـع : هذا كاتب ورجل مسرح عالمى، حاصل على جائزة نوبل .

الضـــابط : هذه هى المشكلة . معنى ذلك أن ما يقوله عنا يسمع فى كل مكان . إنه يتهمنا بأننا قتلة وأعداء للديمقراطية .

يهـــوشـع : إذن أنتم تراقبون حركاتى . وتعدون علىَّ خطواتى .

الضـــابط : هذا لمصلحتك . ولحمايتك .

يهـــوشـع : حمايتى ؟

الضـــابط : نعم . ولحمايتك أيضا نمنعك من السفر .

يهـــوشـع : هذا كثير .

الضـــابط : تريد أن تسافر إلى إيطاليا لتحضر عرض صديقك داريوفو عن الفدائيين .

يهـــوشـع : نعم ، ويجب أن أكون فى المطار بعد ثلاث ساعات .

الضـــابط : نحن نحميك يا أستاذ . لدينا معلومات تقول إن المستوطنين سيمنعون سفرك حتى لو اقتضى الأمر ؟

يهـــوشـع : ماذا ؟

الضـــابط : حتى لو اقتضى الأمر تفخيخ سيارتك .

يهـــوشـع : هذا تهديد لا أقبله .

الضـــابط : سيارتك مفخخة فعلا يا أستاذ .

يهـــوشـع : يمكن أن أذهب إلى المطار بسيارة أجرة .

الضـــابط : لن يسمحوا لك يا أستاذ . أنت معنا فى أمان .

يهـــوشـع : يعنى لن أستطيع حضور العرض ؟

الضـــابط : من حسن حظك !

يهـــوشـع : من حسن حظى ؟

الضـــابط : نعم . الموضوع خرج من أيدينا . الموساد ناوى يتدخل .